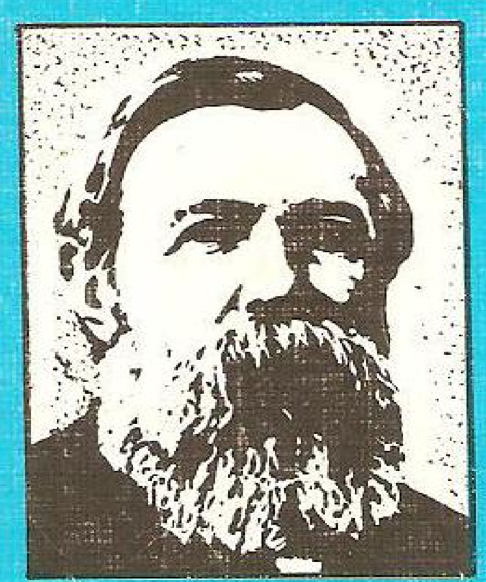
كوزنيتسوف

بصدد مؤلف انجلس "لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية"

دار التقدم موسكو



LUDWIG FEUERBACH

UND DER AUSGANG DER

KLASSISCHEN DEUTSCHEN PHILOSOPHIE

VON

FRIEDRICH ENGELS

REVIDIRTER SONDER-ABDRUCK AUS DER „NEUEN ZEIT"

MIT ANHANG:

KARL MARX ÜBER FEUERBACH
VOM JAHRE 1845.

STUTTGART
VERLAG VON J. H. W. DIETZ
1888.

فضلاً عن مؤلفات ماركس وانجلس ولينين ، تصدر دار «التقدم» كراريس مبسطة عن مؤلفات اعلام الماركسية-اللينينية .

والكراس الذى كتبه الفيلسوف والكاتب الاجتماعى والسياسى السوفييتى فاسيلى كوزنيتسوف عن مؤلف انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» يعرض ظروف واسباب كتابة هذا المؤلف ، ومكان الفلسفة الكلاسيكية الالمانية التاريخي ودورها فى نشوء النظرية الماركسية ، ويكشف جوهر الانقلاب الثورى الذى قام به ماركس وانجلس فى ميدان الفلسفة .

دار التقدم موسكو

25 к.

ترجمة : الياس شاهين

Кузнецов Н. В.

О РАБОТЕ Ф. ЭНГЕЛЬСА „ЛЮДВИГ ФЕЙЕРБАХ И КОНЕЦ КЛАССИЧЕСКОЙ НЕМЕЦКОЙ ФИЛОСОФИИ"

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

$K \frac{0102010000-380}{014(01)-87} 202-87$

تاريخ كتابة المؤلف

في سنة ١٨٨٥ صدر في شتوتغارت كتاب الفيلسوف والعالم الاجتماعي الدانماركي كارل نيقولاي شتاركه «لودفيغ فورباخ» . هذا الكتاب لم يكن بحد ذاته بحثا عميقا في نظرات آخر ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، ناهيك بان صاحبه لم يكن مفكرا اصيلا . ولكن ظهور كتاب شتاركه جاء برهانا جليا على انبعاث الاهتمام في اوروبا بافكار الفلاسفة الالمان العظام . ولهذا السبب بالذات اثار اهتمام هيئة تحرير لسان حال الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية النظري ، مجـــلـــة « Neue Zeit » . فطلبت هيئة التحرير من فريدريك انجلس ان يكتب نبذة انتقادية عن هذا الكتاب ولكنها لم تتلق منه مجرد تقريظ قصير ، بل تلقت مؤلفا مستقلا اسمه «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــة

الالمانية» . فى البدء صدر هذا المؤلف فى سنة ١٨٨٦ فى عددين من المجلة ، ثم صدر بطبعة على حدة فى سنة ١٨٨٨ .

ما الذى حمل انجلس على الكتابة ؟ الرغبة فى الاعراب علنا عن رأيه فى كتاب الفيلسوف الدانماركى ، الذى لم يكن يستحق ، بنظره ، رفيع التقدير ؟ ام اسباب اعمق واهم ؟

قبل الاجابة عن هذين السؤالين ، لنأخذ بعين الاعتبار عاملا آخر ايضا . ذلك ان انجلس بذل كل وقته وقواه تقريبا فى المرحلة الاخيرة من حياته ، اى فى السنوات الاثنتى عشرة التى عاشها بعد وفاة ماركس ، لكى يهيىء للطبع مخطوطات صديقه العظيم الاقتصادية . ففى ٢٢ ايار (مايو) ١٨٨٣ ، كتب انجلس الى يوهان بيكر ، القائد البارز فى الحركة العمالية الالمانية والعالمية :

«قبل كل شيء ، من الضرورى اصدار المجلد الثانى من «رأس المال» ، وهذا ليس بالامر السهل . ان مخطوطة المجلد الثانى توجد بـ ٤ او ٥ صيغ ، الاولى منها فقط

منتهية ، وآخرها فى بدايتها وحسب . لا بد من بذل قدر كبير من الجهد ، لان كل كلمة عند رجل مثل ماركس ، بوزن الذهب» * .

بالفعل ، اقتضى الحال بذل جهد عملاق حقا لاجل تفهم مخطوطات ماركس المكتوبة بخط غير مفهوم اطلاقا بالنسبة لاى امرئ آخر ، وتحريرها ، وتنظيمها ، واخيرا ، اعدادها للطبع ، مع تزويدها بالتعليقات الضرورية . الا ان انجلس قام عمليا وحده بهذا ، رغم العمل الهائل فى قيادة الحركة العمالية العالمية ، ورغم سوء صحته ، ورغم تفاقم سوء بصره . وفى حياته صدر المجلدان الثانى والثالث من «رأس المال» . وقد اعتبر لينين هذا العمل ، عن حق وصواب ، مأثرة ثورية حقيقية اجترحها انجلس .

ونظرا لذلك ، يكتسب المزيد من

---

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٣٦ ، ص ٢٤ .

الحدة السؤال المطروح : لماذا قرر انجلس ، وهو الذى كان يعرف جيدا حجم وصعوبة العمل الاساسى الذى يواجهه ، ان ينفصل عن هذا العمل لاجل تحليل كتاب شتاركه وانتقاده ؟

ان تحليل مؤلف انجلس والوضع التاريخي فى ذلك الزمن يتيح استظهار الاسباب الرئيسية الثلاثة . **السبب الاول** . يمكن اعتبار هذا المؤلف ضربا من انجاز للعمل المشترك الذى قام به ماركس وانجلس لعرض نظراتهما الى المصائر التاريخية للفلسفة الكلاسيكية الالمانية والى دورها بوصفها احد مصادر مذهبهما النظرية . وهذا العمل سبق ان شرعا فيه فى مرحلة تكوين نظريتهما ، اى قبل ٤٠ سنة من كتابة الكراس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . فللمرة الاولى عرض ماركس وانجلس فى مؤلفهما المشترك «الايديولوجية الالمانية» الذى كتباه فى اواسط الاربعينيات نظراتهما بصورة نظام نظرى متناسق ، متكامل ، علما بان هذا العرض بنى

على معارضة مذهب فورباخ والمفاهيم المثالية لبعض الفلاسفة الالمان فى الاربعينيات من القرن التاسع عشر بنظرات ماركس وانجلس . ولكن هذا المؤلف ، باستثناء باب صغير منه ، لم يصدر فى حياة ماركس وانجلس ، بل ان ماركس وانجلس لم ينجزا قسمه النظرى الاساسى المرفق بتحليل انتقادى لنظرات فورباخ الى المجتمع وبعرض لمفاهيمهما بالذات . وبعد هذا لم يرجع ماركس ولا انجلس الى هذا الموضوع بصورة منتظمة . وقد كتب انجلس : «بصدد موقفنا من هيغل ، اعربنا عن رأينا فى بعض المناسبات ، ولكننا لم نفعل ذلك فى اى مكان بصورة تامة . اما فيما يتعلق بفورباخ ، الذى هو مع ذلك ، بمعنى ما ، حلقة وسيطة بين فلسفة هيغل ونظريتنا ، فاننا لم نرجع اليه اطلاقا» * .

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٢١ ، ص ٣٧٠ .

وهكذا ، قبل ظهور مؤلف «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» لم يكن جمهور القراء يعرف من المصدر الاول ، لا موقف مؤسسي الماركسية من اسلافهما الفلاسفة ، ولا تقييمهما لذلك الدور الذي لعبه هؤلاء ، ولاسيما هيغل وفورباخ ، في ظهور مذهب ماركس وانجلس . وقد كان اداء هذه المهمة من نصيب انجلس ، الذي قال عن حق وصواب انه يستحيل فهم جوهر الفلسفة الماركسية بدون معرفة تاريخ ظهورها وصلتها مع النظريات الفلسفية السابقة .

السبب الثاني . انتعاش الاهتمام بنظريات الفلاسفة الالمان الافذاذ كانط ، فيخته ، شيلينغ ، هيغل ، فورباخ ، هذا الانتعاش الذي ارتسم بجلاء في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . وقد كتب انجلس : «تعرف الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في الخارج نوعا من الانبعاث ، وخاصة في انجلترا والبلدان السكاندينافية . وحتى في المانيا ، على ما يبدو ، اخذ الجميع يملون الحساء

الاختياري الهزيل الذي يقدم اليهم في الجامعات باسم الفلسفة» * .

وبالفعل انبعث في اوروبا في ذلك الزمن اهتمام كبير بالفلاسفة الالمان العظام الى حد انه حتى تشكل اتجاه فلسفي مستقل ، هو الكانطية الجديدة ، واثرها ، الهيغلية الجديدة ، اللتين اعرب الشعاران «الى الوراء نحو كانط» او «الى الوراء نحو هيغل» عن قانون ايمان ممثليهما ، علما بان مذاهب كانط وهيغل وغيرهما من الفلاسفة لم تنبعث وتنتشر بكل كمالها ، بل بشكل محرف كثيرا . فان تركة كانط النظرية ، مثلا ، قد ظهرت بحيث ان عناصرها المثالية الذاتية برزت في المقدمة بينما لف النسيان التام ما احتوته من عناصر المادية . وفسر تعليم كانط بصدد حدود المعرفة البشرية بحيث انه تحول الى انكار لكل امكانية لمعرفة العالم الخارجي ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . الطبعة العربية . المجلد ٣ ، الجزء ٢ . ص ١٨٥ . دار التقدم . موسكو .

والخ . وقد حاول مقلدو فلسفة هيغل قصارى جهدهم لكي ينتزعوا منها روحها الثوري ، اي الديالكتيك ، بينما اطروا جوانبها الضعيفة ، الرجعية ، ومنها مثلا ، مذهب الدولة .

ان اسباب هذا الموقف المتحيز من الفلسفة الكلاسيكية الالمانية كانت تمد جذورها قبل كل شيء في المحدودية الطبقية الملازمة لمواقع «اخلافها» الجدد الايديولوجية . فان هؤلاء لم يحاولوا ان يبحثوا تراث الفلاسفة الالمان العظام النظري بحثا عميقا وان يعرضوا بصورة موضوعية جوانب الضعف وجوانب القوة في مذاهبهم قدر ما حاولوا ان يستغلوا مكانتهم ومبتكراتهم النظرية لاجل تعليل اهداف البرجوازية الانانية ، لاجل الدفاع عن مواقف هذه الطبقة التي كانت قد فقدت نحو ذلك الزمن الدور الثوري الذي كان لها من قبل ، والتي تقلبت الى عقبة في طريق التقدم الاجتماعي . وعلى ممثلي هذه التيارات الفلسفية الجديدة يصح كليا قول ماركس : «ومن الآن وصاعدا لم يبق المقصود معرفة ما اذا كانت هذه

النظرية او تلك صحيحة ام غير صحيحة ، بل صار المقصود معرفة ما اذا كانت نافعة للرأسمال ام ضارة ، مناسبة ام غير مناسبة ، ما اذا كانت تتفق مع الاعتبارات البوليسية ام لا . ان البحث المنزه يخلي المكان لمعارك الكتبة المأجورين ، والبحوث العلمية غير المتحيزة يحل محلها الدفاع المتحيز ، المداهن» * .

ثم ان تفسير نظرات الفلاسفة الالمان ، ولاسيما نظرات هيغل وفورباخ تفسيرا مشوها قد جعل من الضروري ضرورة ملحة بالنسبة لانجلس ان يعرب علنا عن موقف الماركسية من الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ويبين مكانها واهميتها التاريخية بوصفها انطلاقة بارزة للفكر البشري ومقدمة نظرية مباشرة لابتداع نظرية علمية حقا للتطور الاجتماعي . وقد قال انجلس : «ونظرا لذلك بدا لي اكثر فاكثر ان الوقت قد حان لكي اعرض موقفنا من الفلسفة الهيغلية عرضا موجزا منهجيا : كيف انطلقنا منها ،

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٢٣ ، ص ١٧ .

وكيف عدلنا عنها . كذلك حسبت ان علينا دين شرف لم نوفه هو الاعتراف الكامل بالتأثير الذى اثره فينا فورباخ ... اكثر من اى فيلسوف آخر بعد هيغل» * .

واخيرا ، **السبب الاخير** من حيث التسلسل ، ولكن ليس من حيث الاهمية ، ضرورة عرض صحيح لجوهر المادية الديالكتيكية والتاريخية ، بوصفها فلسفة الماركسية . وهذه الضرورة كانت ترتبط بنمو الحركة العمالية العالمية وتفاقم التضاد بين الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية البروليتارية .

فنحو اواسط الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، كانت الحركة العمالية قد احرزت نجاحات كبيرة فى اوروبا وفى اميركا الشمالية . وبفضل النشاط المتعدد الجوانب الذى بذلته جمعية الشغيلة العالمية (الاممية الاولى) التى كان مؤسسا الماركسية وقرب انصارهما منظميها وقادتها ، ظهرت فى عدد كبير من البلدان

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . الطبعة العربية . المجلد ٣ : الجزء ٢ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة . وهذه العملية التى كانت دليلا مقنعا على نمو قوى الحركة العمالية وارتفاع مستواها التنظيمى ، قد جرت على صلة مباشرة بنضال الاشتراكية العلمية الناجح ضد مختلف مفاهيم البرجوازية والبرجوازية الصغيرة التى حاولت ان تؤثر فى تكون عقيدة البروليتاريا . وعلى العموم ، كان نضال الماركسية بلا هوادة ضد شتى النظريات الاشتراكية والاشتراكية المزعومة الطوباوية اللاعلمية شرطا ضروريا لاتساع الحركة الثورية للبروليتاريا بدأب وثبات ، وكان فى الوقت نفسه قانونا من قوانين تطور الماركسية بالذات .

وقد وجه ماركس وانجلس فى النصف الاول من الاربعينيات ، فى مرحلة تكوين نظريتهما ، انتقادا ماحقا الى نظرات الهيغليين الشباب ، والمثالية الفلسفية ، والراديكالية السياسية المزعومة ، التى لم تكن تفعل غير ان تخدم مآرب الطبقات السائدة . وفى اواخر الاربعينيات شغل مركز الصدارة من اهتمام ماركس وانجلس النضال فى ميدان الاقتصاد

السياسى ، وفي المقام الاول النضال ضد البرودونية . وهذا النضال حفز ماركس بقدر كبير على ابتداع مذهبه الاقتصادى . وفى الستينيات والسبعينيات ، انتقل الصراع بين الماركسية والمفاهيم المعادية من ميدان النظرية العامة الى ميدان اقرب الى الحركة العمالية ، هو ميدان النشاط السياسى المباشر . وفى ذلك الوقت كان مفهوم الباكونينية الفوضوى ونظرات اللاساليين الانتهازية بمثابة العدو الاساسى للماركسية .

منذ سنة ١٨٧١ ، اى بعد هزيمة كومونة باريس ، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة العمالية العالمية تتميز بطابع تطورها «السلمى» نسبيا ، وبانعدام نضالات الكادحين الثورية الحازمة . ومرد ذلك الى ان مهمات التحويلات البرجوازية الديموقراطية فى بلدان اوروبا الغربية كانت قد تحققت اساسا ؛ بينما كانت بلدان الشرق لم ترتفع بعد الى مستوى الثورات البرجوازية . وفى ذلك الوقت ، تشكلت جملة كبيرة من الاحزاب البروليتارية

المستقلة ، وكانت الاشتراكية العلمية اساسا نظريا راسخا لنشاطها . وقد قال لينين : «. . . واحرز مذهب ماركس انتصارا كاملا واخذ **يمتد ويتسع** . وتتطور ببطء ، ولكن بدأب ، عملية انتقاء وحشد قوى البروليتاريا ، واعدادها للمعارك المقبلة» * .

ولكن انتصار الماركسية فى اشتباك سافر ضد الاعداء فى قلب الحركة العمالية لم يعن البتة توقف الصراع بين الفريقين توقفا تاما . فان ممثلى مختلف ضروب الاشتراكية اللاعلمية قد واصلوا النضال ؛ ولكن لا من مواقع نظرياتهم ، بل فى ميدان الماركسية العام ، كمحرفين . فقد حاولوا ان يعيدوا النظر فى مبادئ المذهب الماركسى الاساسية ، ان يحرفوها بالتذرع بالظروف التاريخية التى تغيرت ؛ لقد سعوا الى تفريغ الماركسية من جوهرها الثورى ، والاستعاضة عن نظرية تحويل المجتمع تحويلا ثوريا بالوصفات القديمة القائلة

* لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات . الطبعة العربية . المجلد ٥ ، ص ٢٨ . دار التقدم . موسكو .

بجعل النظام الرأسمالى ليبراليا عن طريق الاصلاحات التدريجية . وحاولوا ان يحرفوا الماركسية فى جميع الاتجاهات ، بما فى ذلك فى ميدان الفلسفة . وعلى غرار البروفسورات البرجوازيين ، دعا المحرفون الى تذليل الاحادية التى نسبوها الى مادية ماركس ، والى الجمع بين مادية ماركس وبين الكانطية الجديدة وموضوعاتها المثالية . ولطمس كنه الانقلاب الثورى الذى قامت به الماركسية فى ميدان الفلسفة ، محوا الحد بين تعاليم ماركس وانجلس الفلسفية وبين نظريات اسلافهما وفى المقام الاول بينها نظرية هيغل .

وفى هذه الاحوال كان من المهم بخاصة (سواء لاجل توطيد انتصار الماركسية على الصعيد النظرى فى الحركة العمالية ام لاجل النضال بنجاح ضد التحريفية الناشئة) اعطاء عرض واضح ، مبسط ، للفلسفة الماركسية ، وتوضيح جوهرها بوصفها كلمة جديدة فى تاريخ الفكر البشرى وبوصفها فى الوقت نفسه وريثة الاكتشافات البارزة التى حققتها المذاهب

الفلسفية السابقة . وكان من الضرورى وضع مؤلف يسلح الطبقة العاملة ، بالاعتماد على تعميم كل تجربة تطور فلسفة الماركسية ، فى النضال ضد الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية التحريفية ، بالمعرفة العلمية لاعم قوانين تحويل العالم تحويلا ثوريا .

وجميع هذه الاسباب هى التى اشترطت بمجملها ضرورة وضع مؤلف مثل «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . فمن جهة ، كان من شأنه ان يكون بمثابة خلاصة موجزة لما بذله ماركس وانجلس خلال سنوات وسنوات من جهد لتطوير فلسفة المادية الديالكتيكية والتاريخية ، وان يعكس عزم مؤسسى الماركسية القديم على تبيان علاقة المفهوم الجديد الفعلية مع الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، وبخاصة مع نظريات هيغل وفورباخ . وليس من قبيل الصدفة يلحق انجلس بكراسه موضوعات ماركس الاحدى عشرة بصدد نظرات فورباخ ، التى اكتشفها انجلس فى مفكرة صديقه الراحل ونعتها

«بالنواة العبقرية للمفهوم الجديد عن العالم»*.

ومن جهة اخرى ، لم يتسم مؤلف انجلس باهمية نظرية عرفانية وحسب ، بل كان كذلك سلاحا ماضيا في يد البروليتاريا الثورية واحزابها السياسية ، يساعدها في النضال بلا هوادة ضد الايديولوجية البرجوازية واتباعها في صفوف الحركة العمالية بشخص المحرفين والانتهازيين .

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٦ .

ان مكان الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في التاريخ ، ولاسيما منها مذهب هيغل بوصفه ذروتها ، حدده ، برأى انجلس ، دورها البارز في تطور العلم الفلسفي العالمي ، وكذلك تأثيرها البالغ في الاحداث اللاحقة في حياة المجتمع الاوروبي السياسية والفكرية .

وكما احدث الماديون والمتنورون الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، بمؤلفاتهم ونشاطهم السياسي ، انقلابا في وعي شعبهم وكونوا بالتالي المقدمات الروحية للثورة البرجوازية ، كذلك ادى انتشار نظرات الفلاسفة الالمان العظام الى الثورة الفلسفية الحقيقية واعد الوعي الاجتماعي لادراك الافكار الثورية السياسية . وفي فرنسا والمانيا على السواء ، نشبت الثورات ، بادئ بدء ، في ميدان النظرية ، ثم ، بعد ذلك ، في ميدان السياسة . ولكن الثورات الفلسفية

في هذين البلدين المجاورين ، كما لاحظ انجلس ، قد اختلفت اختلافا تاما من حيث طابعها .

وقد بشر الماديون والمنورون الفرنسيون على المكشوف بالثورة البرجوازية العتيدة . ودفاعا عن مصالح طبقة البرجوازية التي كان يشتد ساعدها أكثر فأكثر ، اعلنوا ان النظام الاجتماعي الاقطاعي القائم غير معقول ، وانه لا ينطابق مع طبيعة الانسان . ولم يخفوا موقفهم من السلطات القائمة ، فتعرضوا للملاحقة السافرة . ان مداخلات ايديولوجيي الثورة العتيدة والملاحقات الجوابية من قبل المدافعين عن الاوضاع القديمة لم تكن غير علائم النضال الطبقي في الميدان السياسي والفكري من ميادين الحياة الاجتماعية . كانت مصالح الاوائل تتطلب تحويل المجتمع القائم تحويلا ثوريا ، والقضاء على تلك الظروف التي كانت ضرورية ضرورة مطلقة لوجود الثانين . ولقد جعل التضاد بين الفريقين ، بطابعه الجلي والضاري ، مبشري الثورة الفرنسيين «يحاربون على المكشوف

كل العلم الرسمي ، والكنيسة ، كما يحاربون الدولة احيانا كثيرة ؛ ومؤلفاتهم تطبع فيما وراء الحدود ، في هولندا او في انجلترا ، ولا يندر لهم بالذات ان يحدق بهم خطر السجن في الباستيل(*) » . وقد تعرض الممثل البارز للتنوير الفرنسي ، فولتير ، لملاحقات مديدة وصارمة ، لانه انتقد ؛ بكل قوة عقله الباهر وسخريته اللاذعة نمط حياة النبلاء ورجال الدين وامتيازاتهم المراتبية ، ونادى باجراء تحويلات ديموقراطية . وقد زج به مرتين في سجن الباستيل الملكي ، واضطر الى العيش خلال سنوات عديدة في المنفى خارج حدود فرنسا . كما ان مؤلفه المشهور «الرسائل الانجليزية» احرق علنا في موقد . وكان المصير نفسه من نصيب المؤلفات البارزة في ذلك الزمن ، ومنها كتاب المنور البارز ديني ديدرو «افكار فلسفية» ، ومؤلفات الفلاسفة الماديين الفرنسيين ، مثل كتاب هلفيسيوس

(*) ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٧ . دار التقدم . موسكو.

«بصدد العقل» ، وكتاب لامتري «بحث في الروح» . وديدرو نفسه تعرض للاعتقال والسجن لنشره «افكارا خطيرة» ، واضطر هلفيسيوس مع لامتري الى طبع مؤلفاتهما في هولندا .

ومن هنا ينجم ان طابع التمرد الملازم لمؤلفات المنورين والفلاسفة الماديين الفرنسيين ودورهم في الاعداد الايديولوجي للمعارك الثورية المقبلة جلي جدا . ولكن الوضع يختلف تماما فيما يتعلق بمؤلفات ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . ومن الصعب جدا جدا ، في حال الاطلاع السطحي عليها : اكتشاف الصلة بينها وبين الثورة البرجوازية في اواسط القرن التاسع عشر في المانيا . فهي ، على العموم ، مؤلفات فلسفية ضخمة تتناول بلغة معقدة وجافة مواضيع مجردة بعيدة جدا عن القضايا الحيوية في الحياة السياسية . وحين يتخطى العرض فيها اطار «النظرية الخالصة» ويمس الوقائع السياسية ، كانت استنتاجاتها ومقترحاتها معتدلة جدا وحتى محافظة . والمؤلفون شأنهم شأن مؤلفاتهم . انهم ليسوا بثوريين اطلاقا .

فان هؤلاء هم باغلبيتهم علماء وبروفسورات كان نشاطهم الادبي والتربوي لا يتعرض للملاحقات ، وليس هذا وحسب ، بل كان يلقى ايضا ، وعلى العكس ، التشجيع من جانب الحكومة اذ كانت ترى فيهم ؛ لا هدامين ، بل مدافعين عن الاوضاع الاجتماعية القائمة والاخلاق والدين . وقد عاش مؤسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية **ايمانويل كانط** حياة معتدلة مديدة في مدينة واحدة هي كونيغسبرغ . وكانت حياته مرتبطة بمعظمها بالجامعة المحلية حيث كان في البدء استاذا مساعدا ثم بروفسورا . وكانت افكاره التي مارست تأثيرا قويا جدا في تطور الفكر الفلسفي تطفح بالتناقضات وتفسح المجال لتفسيرها في اتجاهات مضادة . فمن جهة بدأ كانط يبحث المعرفة البشرية ومكانياتها وحدودها الفعلية (وكان لهذا البحث اهمية ايجابية كبيرة جدا) ، ودمر كليا جميع البراهين العقلية على وجود الله ؛ وعلل ضرورة اجراء تحويلات اجتماعية واقتصادية جديدة . ومن جهة اخرى ؛ اقام

عقبة كأداء في طريق معرفة العالم باعلانه انه يستحيل كليا على الانسان ان يدرك بعقله وحواسه كنه الاشياء الحقيقي ، واقر بضرورة الايمان في الله لاجل التوفيق بين مقتضيات الوعي الاخلاقي ووقائع الشر والعنف التي لا ريب فيها والتي تسود في المجتمع ، وقطع الطريق بالفعل امام اشاعة الديموقراطية حقا في الحياة الاجتماعية باعلانه ان الامكانية الوحيدة لذلك هي الاصلاحات السلمية من جانب الطبقات الحاكمة واعتبر نضالات الشعب الثورية ظاهرة هدامة وسلبية تماما .

ان التناقضات الملازمة لمذهب كانط قد لازمت ايضا في كثير من النواحي ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الالمانية اللاحقين **يوهان غوتليب فيخته وفريدريك ولهلم يوسف شيلينغ** اللذين طرأ على نظراتهما الاجتماعية والسياسية ، طوال حياتهما ، تطور جوهري جدا ، بل تطور حاد جدا عند شيلينغ الذي وقف في اواخر حياته الى جانب الرجعية البروسية في النضال ضد القوى الديموقراطية في المجتمع

الالماني . ولكن جوانب القوة وجوانب الضعف في هذا الاتجاه الفلسفي تبدت باكبر قدر من السطوع في مذهب **غيورغ ولهلم هيغل** الذي صار قمة الفلسفة المثالية الالمانية . وعليه بالذات ركز انجلس اهتمامه . وقد بين انجلس كيف صارت نظرية هيغل ، من جراء تناقضاتها الداخلية ، عاملا ثوريا في تطور الفلسفة ؛ ومقدمة روحية للثورة السياسية ، وكيف صارت في الوقت نفسه دعامة فكرية لنشاط الاوساط الحاكمة ، وكيف انها حتى رفعت ، الى حد ما ، «الى مصاف الفلسفة الرسمية الملكية البروسية» * . ولفهم مجرى محاكمات انجلس اللاحقة ، ينبغي الاطلاع ، وان بأعم نحو ، على الموضوعات الاساسية في فلسفة هيغل .

كان هيغل مثاليا من حيث عقائده الفلسفية اي انه التحق باولئك المفكرين الذين كانوا يعتبرون ان **مبدأ ما غير مادي** ، **روحيا** ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٧ .

يقوم في اساس الكون . ودور هذا المبدأ لعبته عنده **الفكرة المطلقة** التي هي المصدر الاول لكل موجود ، والتي تنطوي على كل غنى تجليات العالم المادي والروحي ، وتحدد بضرورة حديدية منطق تطور المجتمع بمجمله ونشاط جميع اعضائه . وهذا الفهم لجوهر الفكرة المطلقة يبين ان نظرات هيغل كانت ضربا من المثالية الموضوعية التي كان ممثلوها يعترفون بوجود الاصل الروحي خارج وعي الانسان وبصورة مستقلة عنه . ان موقفهم يختلف عن مفاهيم المثاليين الذاتيين الذين يرون انه يستحيل وجود اي واقع كان خارج الوعي وبصورة مستقلة عنه . ولقد كان مذهب هيغل ذروة تطور الفلسفة المثالية الموضوعية ، سواء من حيث سعة احاطتها بالقضايا المطروحة ام من حيث درجة بحث وحل هذه القضايا .

ان العالم المحيط بنا : — الطبيعي والاجتماعي ، — هو ، برأي هيغل ، نتيجة لكشف الفكرة المطلقة لذاتها . وهذه الفكرة هي عبارة عن شكل خلاق لامتناه ينطوي

على كل مضمون بكل كماله ويؤلف في الوقت نفسه مصدره» * . ومن الممكن تفسير الفكرة المطلقة ، بمعنى معين : بانها التفكير بمجمله : العقل . وليس هذا بتفكير او عقل انسان بعينه ولا حتى الوعي الاجتماعي ، بل هو العقل العام ، مبدأ عاقل موضوعي ما ، يؤلف جوهر كل عملية التطور العالمي ، ولهذا يمكن القول ان العالم عاقل لانه ، في مجمل تجلياته ، لا يعدو ان يكون درجات متتابعة لتطور العقل ، وولادة التفكير الذي يتطور بموجب قوانينه الداخلية . ومن هنا تنجم موضوعة التطابق المبدئي بين الوجود والتفكير لان الوجود ، برأي هيغل ، ليس الا مرحلة من مراحل تطور الروح الى الامام . ليس التفكير هو انعكاس للوجود المادي ، بل الوجود ، الواقع الطبيعي والاجتماعي يقوم ، بالعكس ، بدور شيء ما ثانوي حيال التفكير المعدوم الصفات الشخصية ، التجريدي ،

* Hegel G.W.F. Sämmtliche Werke, Stuttgart, 1929, Bd. 8, s. 354.

الذى اسمى «الفكرة المطلقة» .

ان **المنطق وفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح** هى الاقسام البنيوية الاساسية فى فلسفة هيغل ، وهى التى اضفت الاسماء على الاقسام الثلاثة من مؤلفه الرئيسى «موسوعة العلوم الفلسفية» .

وقد اجرى هيغل هذا التقسيم وفقا للمراحل المتتابعة الثلاث لكشف الفكرة المطلقة لذاتها .

المرحلة الاولى هى المنطق ، «مملكة الفكر الخالص» او ، كما يقول هيغل ، صورة الله فى وجوده السرمدى . وهنا لا وجود بعد لا للطبيعة ولا للانسان ، بل يبدو كشف الفكرة المطلقة بمثابة حركة متصاعدة من التعاريف العامة المجردة («الوجود») الى تعاريف تحفل بمضمون ملموس .

وحين تجتاز الفكرة المطلقة جميع درجات التطور المنطقى ، تتحول الى ضدها — الطبيعة . ان هذه الموضوعة هى من اشد الجوانب غموضا فى مفهوم هيغل ، لان صاحبها لا يستطيع ، بالطبع ، ان يفسر الية هذا التحول الملموسة .

ونظرا لذلك لا يفعل غير ان يلاحظ فى

الفترة الاخيرة من «المنطق» ان الفكرة «**تعتزم** فى حقيقتها المطلقة ان تنتج من نفسها عنصر خصوصيتها او عنصر تعريفها الاول ووجودها الآخر ، **الفكرة المباشرة** ، بوصفها انعكاسها ، **تعتزم** ان **تطلق** نفسها بحرية من نفسها بالذات بصفة **الطبيعة**» * . وعليه تكون الطبيعـة ، فى تصور هيغل ، وجودا آخر ، حالة اغتراب الفكرة المطلقة . وبما ان الطبيعة مشتقة ، ثانوية من حيث جوهرها ، فانها لا تتطور بمعنى الكلمة الاصلى ، بل تعرض تنوعها فى المكان وحسب .

ان الانتقال الى الوجود الآخر ضرورى للفكرة المطلقة لكى تكشف مضمونها فى هذا «الآخر» ، فى الطبيعة ، وتصعد على درجاتها الى الروح وتعود بالتالى على مستوى جديد الى وحدة الاولية مع نفسها بالذات .

وفى هذه المرحلة الختامية من تكشفها تبرز الفكرة المطلقة بوصفها مضمون العملية التاريخية

* Hegel G.W.F. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1929, Bd. 8, s. 452.

الداخلى وجوهرها . ففى سياق تاريخ المجتمع على وجه الضبط ، تعرف الفكرة المطلقة ذاتها نتيجة لتطور التفكير البشرى ، ويتحقق بالتالى ، اخيرا ، الهدف النهائى من انتشارها الذاتى .

ومن هنا يظهر ان المخطط الهيغلى للعملية العالمية هو عبارة عن تصور غريب جدا ، خيالى لتطور الواقع الموضوعى ، الطبيعى والاجتماعى على السواء . ولو ان فلسفة هيغل انحصرت فى هذا المخطط ، لما استطاعت يوما ان تضطلع فى تاريخ تطور الفكر البشرى بذلك الدور البارز الذى يعود اليها عن حق وصواب ، ولما استطاعت ان تصبح المقدمة الروحية للثورة البرجوازية فى المانيا . ولكن فلسفة هيغل ليست المثالية وحسب ، بل المثالية الديالكتيكية . فقد صاغ هيغل على اساس مثالى الموضوعات الاساسية فى الطريقة الديالكتيكية لمعرفة العالم ، وبذلك ارسى الاساس الذى استطاع ماركس وانجلس ان يبنيا عليه الديالكتيك المادى العلمى حقا .

ان الديالكتيك هو ، بأعم صوره ، عبارة عن مذهب فلسفى عن اهم الصلات المشروعة وعن نشوء وتطور الوجود والمعرفة . وقد مر الديالكتيك فى طريق عسير ومديد جدا من التطور التاريخى — من افكار المفكرين القدماء الديالكتيكية العضبية ، التى كانت تتخذ بالاحرى شكل تخمينات عبقرية ، الى المذهب المادى الديالكتيكى الماركسى ، الذى هو اداة جبارة لمعرفة العالم معرفة خلاقة ولتحويله تحويلا ثوريا . وقد كان الديالكتيك المثالى الهيغلى صورة بالغة الشأن فى هذا السبيل التاريخى . فقد استطاع هيغل ، بصورة اكمل الى ما لا قياس له من اى آخر قبله ، ان يفهم جوهر الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الواقع ويعرب عنه . وبفضل هيغل على وجه الضبط ، صيغ «الاسلوب الديالكتيكى للتفكير وفهم كل العالم الطبيعى والتاريخى والفكرى بوصفه عالما يتحرك الى ما لا نهاية له : ويتغير ، ويتواجد فى عملية دائمة من النشوء والزوال . والآن ، لا تواجه

الفلسفة وحدها ، بل تواجه **جميع** العلوم ايضا ، مطلب اكتشاف قوانين حركة عملية التحويل السرمدية هذه في كل ميدان بمفرده . وفي هذا يتلخص التراث الذي تركته الفلسفة الهيغلية لاخلافها(١) » .

لقد صاغ هيغل قوانين الديالكتيك الاساسية وبنى نظاما متناسقا ، متكاملا نسبيا من مقولات ديالكتيكية . صحيح ان هذا النظام قد عكس ، كما يقول هيغل ، العمليات الديالكتيكية الجارية في ميدان التفكير . ذلك ان هذا الميدان بالذات هو الذي هيمن في مفهومه المثالي على القدرة على التطور الفعلي . اما العالم المادي ، الطبيعي ، فقد حرم منها . ولهذا السبب بالذات ، يرد التحليل الديالكتيكي للمقولات الفلسفية ، ومنها الوجود والجوهر والصفة والعدد والضرورة ، والخ . ، في تلك الابواب من مؤلفات هيغل التي تبحث حركة الفكرة المطلقة في «مملكة الفكر

(١) ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٢٠ ، ص ٢٣ .

الخالص» . ان هذه المقولات تبرز بمثابة درجات تمر بها الفكرة في الكشف عن ذاتها . لقد رفع هيغل الفكر فوق الطبيعة ، وطوى امامه ضرورة تمثل العالم الطبيعي الذي يقابله ؛ الامر الذي يتطلب وقف هذا العالم وحرمانه من التطور الفعلي ، وشبه الفكر بالعنكبوت الذي يلف الذبابة بشباكه بكل قوة قبل ان يمتص منها دمها . ان الفلسفة المثالية الهيغلية تحرم الطبيعة من وجودها المستقل وبذلك تميتها : «يجب علينا ان نعتبر الطبيعة **نظاما من درجات** تنبع كل منها بالضرورة من درجة اخرى وتكون اقرب حقيقة الى تلك التي نبعت منها ، ولكنه لا توجد هنا عملية توليد **طبيعية** ، فيزيائية ، بل مجرد ولادة في حضن الفكرة الداخلية التي تشكل اساس الطبيعة(*) » .

* Hegel G.W.F. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1929. Bd. 9, s. 58.

3-947

ومن هنا ينجم ان هيغل قد كشف قوانين الديالكتيك ومقولاته في ميدان التفكير النظرى ، لا على مثال اشياء ومواد العالم المادى ذاتها ، بل على مثال مفاهيمها . ولكن هذا تحقق بدرجة من العمق بحيث ان وراء حركة المفاهيم تتبدى على الدوام حركة اساسها الفعلى — العالم المادى . وقد اشار لينين الى اهمية ديالكتيك هيغل الموضوعية ، وكتب على هامش ملخص مؤلف هيغل «علم المنطق» : «**خمن** هيغل بصورة عبقرية ديالكتيك الاشياء (الظاهرات ، العالم ، **الطبيعة**) في ديالكتيك المفاهيم» * . في هذه الملاحظة ، نجد المفتاح لاعطاء تقييم صحيح عن الدور الذى اضطلع به المفكر الالمانى العظيم في تطور طريقة التفكير الديالكتيكية . فمن جهة ، ينعت لينين المفهوم الهيغلى عن الديالكتيك «بالتخمين» ، لانه مشوه منذ بادئ بدء باساسه الفلسفي المثالى . ولكنه من جهة اخرى تخمين عبقرى

* لينين . المؤلفات . الطبعة الخامسة ، المجلد ٢٩ ، ص ١٧٨ .

عكس الطابع الكلى لتطور ظاهرات وعمليات الواقع الموضوعى وللصلة الديالكتيكية المتبادلة بينها .

ان ما تميزت به الفلسفة الديالكتيكية الهيغلية من اهمية بالغة وطابع ثورى قد تلخص في كونها ، كما اوضح انجلس ، قد «وضعت حدا نهائيا لكل تصور عن الطابع النهائى لنتائج فكر الانسان وفعله» * . وقطع هيغل بحزم وعزم كل صلة بالتقليد السائد بين اغلبية الفلاسفة وعلماء الطبيعة ، وهو ان يروا في المعرفة عملية التوصل بتتابع وثبات الى تفهم مجمل معين (نهائى) مما يسمى «الحقائق المطلقة» . وحسب هذا التقليد ، تبقى هذه الحقائق كما هى في جميع الظروف الطبيعية او التاريخية ، ويجب ان تعطى الناس بمجملها المعرفة النهائية ، الكاملة عن العالم .

خلافا لوجهة النظر هذه ، اعتبر هيغل

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

الحدود بين الحقيقة والضلال نسبية ومتحركة جدا ، واعتبر تفهم الواقع المحيط عملية معقدة ومديدة ، لا نهاية لها حقا ، ليس لها طريق رئيسية يسير عليها تطور المعرفة العلمية وحسب ، بل لها ايضا طرق جانبية وحتى تشعبات مأزقية . وكان تصور لانهائية حركة الفكر البشري يناقض قطعا ادعاءات الكثير من المفاهيم الفلسفية ومفاهيم العلوم الطبيعية في امتلاك المعرفة المطلقة عن العالم ويوجه العلماء الى البحث الخلاق المتواصل .

وقد قال انجلس : «فالحقيقة التي كان ينبغي ان تعرفها الفلسفة ، لم تبد لهيغل بشكل مجموعة من العقائد الجامدة الجاهزة ، التي ليس على المرء بعد اكتشافها الا ان يحفظها عن ظهر قلب ، فالحقيقة قد انحصرت منذ ذاك في مجرى المعرفة نفسه ، في التطور التاريخي الطويل للعلم الذي يصعد من درجات دنيا الى درجات اعلى فأعلى في سلم المعرفة ولكن دون ان يبلغ ابدا نقطة لا يستطيع ان يستمر سيره منها بعد ايجاد ما يسمى

الحقيقة المطلقة ، ولم يعد له بتاتا ان يبقى حيث هو ، مكتوف الايدي ، يتأمل باعجاب الحقيقة المطلقة التي حصل عليها . هكذا يجري سواء في ميدان المعرفة الفلسفية ام في ميدان اي معرفة كانت وكذلك في ميدان النشاط العملي» * .

وقد دل هيغل على السبيل الى استيضاح القوانين الديالكتيكية لا في حركة المعرفة البشرية وحسب ، بل ايضا في تطور المجتمع . ان دراسة تاريخ البشرية من مواقع ديالكتيكية منسجمة تؤدي حتما الى القول بالطابع النسبي لدرجة التطور الاجتماعي المبلوغة بالمقارنة مع لانهائية العملية التاريخية . ومن هذه المواقع ، يبدو المجتمع القائم ، كل مجتمع ، من جهة ، نهاية للتطور التاريخي السابق ، ومن جهة اخرى ، صانعا للمقدمات من اجل الانتقال الى شكل اجتماعي اعلى . وفي هذه الطريقة بالذات لتقييم الواقع الاجتماعي ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

تجلى الطابع الثورى للديالكتيك الهيغلى ، وتجلى رغم الشكل الغامض جدا والصوفى تقريبا فى بعض الاحيان ، نعرض المادة . ونظرا لذلك ، يحذر إنجلس من التقييم الاحادى الجانب للموضوعات المعروفة جيدا فى فلسفة هيغل ، ويدعم فكرته بمثال قول مأثور واسع الاستعمال فى ذلك الزمن من مقدمة مؤلف هيغل «فلسفة الحق» جاء فيه : «كل ما هو واقع هو معقول ، وكل ما هو معقول هو واقع» * .

من النظرة الاولى يبدو هذا القول مجرد تبرير للاوضاع الاجتماعية القائمة ، مجرد توضيح فلسفى للمؤسسات الاجتماعية ايا كانت ، مهما كانت رجعية . هكذا بالضبط كان يظن ممثلو الاوساط المحافظة ، الملكيـة الاقطاعية ، والليبيراليون البرجوازيون القصيرو النظر الذين كانوا يرون فى هيغل مدافعا بوجه الحصر عن الملكية البيروقراطية البوليسية القائمة .

* Hegel G.W.F. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1928, Bd. 7, s. 33.

وعلى نقيضهم ، عرض انجلس تفسيرا مغايرا لهذا التعبير يرتكز على نظرات هيغل بالذات .

فان انجلس يلفت النظر الى الفرق الوارد فى فلسفة هيغل بين الوجود والواقع . فليست جميع الظاهرات الاجتماعية الموجودة ، برأى هيغل ، واقعية كذلك . الواقع بنظر هيغل اعلى من الوجود ، وهو لا يلازم سوى الظاهرات التى وجودها ضرورى موضوعيا . مثلا ، ضرورة ظهور هذا الشكل او ذاك من هيكل الدولة يمليها مجمل معين من الظروف التاريخية . واذا كانت الدولة تتطابق مع هذه الظروف ، فانها واقعية ، فعلية ، ومعقولة فى آخر المطاف . ولكن الظروف التاريخية تتغير مع مر الزمن ، وعاجلا ام آجلا تحل لحظة تكف فيه الدولة المعنية عن التطابق مع المرحلة الجديدة من التطور الاجتماعى . وبديهى ان شكل الدولة القديم قد لا يزول فى الحال ، ولكن بما انه لم تبق ثمة ضرورة تاريخية لوجوده ، فلا يمكن القول عنه انه واقعى وانه معقول . ومهما استمر وجوده ، فان

هلاكه محتم ، مثلما هو محتم حلول شكل جديد لهيكل الدولة محله .

ان النظرة الى الواقع التاريخي بوصفه عملية ولادة ونمو وتطور واضمحلال مختلف الاشكال الاجتماعية تتناسب مع روح ديالكتيك هيغل . «فان اى شيء ، كان واقعا فيما مضى» ، حسب ديالكتيك هيغل ، «يصبح في مجرى التطور غير واقع ، ويفقد ضرورته وحقه في الوجود ، وصفته المعقولة . ومحل الواقع المحتضر يحل واقع جديد صالح للحياة – يحل محله سلميا ، اذ كان القديم عاقلا بحيث يتقبل مصيره دون مقاومة ، وبالعنف اذا عارض القديم هذه الضرورة» * .

وهكذا تتحول الموضوعة القائلة «كل ما هو واقع هو معقول ، وكل ما هو معقول هو واقع» من اداة موثوقة للدفاع عن الاوضاع الاجتماعية القائمة الى نقيض مباشر ، الى اساس لضرورة الاستعاضة عنها بنظام اجتماعي

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢١ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

جديد . وبما ان كل واقع في ميدان التاريخ البشرى يصبح مع مر الزمن غير معقول ، ويفقد حقه في الوجود ، فان هذا يعنى انه لا وجود لاى شيء مثبت ، جامد ، مطلق ، يعنى انه لا يمكن لاى مجتمع ، لاى دولة ، اعتبار نفسها ذروة التطور التاريخي . ومن جهة اخرى ، كل ما هو معقول في رؤوس الناس يجب ان يصبح مع مر الزمن واقعا مهما كان مناقضا للتصورات القائمة .

وتحويرا لقول لبطل غوته ، ميفيستوفيلس ، كتب انجلس : «فالموضوعة التى تقول بان كل ما هو واقع هو معقول ، تتحول ، وفقا لجميع قواعد التفكير الهيغلية ، الى موضوعة اخرى ، هي ان كل ما هو قائم يستحق الزوال» * .

لقد وصف انجلس الفلسفة الديالكتيكية وصفا مسهبا ونوه بدور هيغل البارز في بنائها ؛ ولكن انجلس اشار في الوقت نفسه الى ان الموضوعة

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

التى صاغها اعلاه بصدد الجوهر الثورى حقا للتفكير الديالكتيكى لا ترد فى اى من مؤلفات هيغل . فلماذا لم يقترب هيغل نفسه من تلك الاستنتاجات الجذرية التى تنبع بصورة محتمة من تطبيق الطريقة الديالكتيكية بدأب وانسجام ؟ ان انجلس يرى سبب هذا فى كون الطريقة الديالكتيكية فى مذهب هيغل لا تضطلع فى نظامه الفلسفى بالدور الحاسم ، بل بدور ثانوى .

ذلك ان هيغل ، حين انتقد نظرات سابقيه ، لم يستطع ان يتغلب كليا على الفهم الخاطئ السائد بينهم لمكان الفلسفة ودورها فى حياة المجتمع . ومن حيث الجوهر ، فعل ما فعلوه ؛ فقد حاول ان يصوغ منهجا نظريا يشمل العالم كله ويعطى الانسانية المعرفة المطلقة عن هذا العالم بصورة مجمل معين من موضوعات معطاة مرة واحدة والى الابد . ذلك ان منهج فلسفة هيغل قد بنى بحيث يعيد نظريا بناء عملية التطور العالمى كله ، بحيث يشملها ؛ لا فى قوانينها الاساسية

وحسب ، بل ايضا فى اجزائها . وكانت تلك محاولة جلية البطلان لحشد كل الواقع الموضوعى المتنوع وعملية العرفان اللامتناهية فى اطر اصطناعية صلبة لانشاء فلسفى . وهذه المحاولة ادت الى ظهور تناقضات عديدة فى قلب المذهب الهيغلى .

ومن هذه التناقضات ، — الامر الذى سبق ان تحدثنا عنه ، — كان انكار هيغل لقدرة الطبيعة على التطور . فبما ان الطبيعة هى نتاج الفكرة المطلقة ، فقد كان لا بد لها من ان تنشأ كلها على الفور . وعلى الفور كان ينبغى ان يظهر كل الواقع الطبيعى المتنوع الذى لا يفعل فيما بعد غير ان ينتشر فى المكان ، ولكن لا فى الزمان ، الامر الذى هو شرط ضرورى للتطور الفعلى . ان هذه الموضوعة من الفلسفة الهيغلية ، كما يبين انجلس ، تثير قدرا اكبر من الحيرة لان العلوم الطبيعية كانت نحو ذلك الزمن قد كدست مادة كبيرة عن عمليات التطور فى الطبيعة الحية وغير الحية ولان بعض العلماء

البارزين قد اعربوا عن تخمينات عبقرية سبقت نظرية التطور اللاحقة . ان هذه الموضوعة قد دخلت في تناقض صارخ مع طريقة هيغل نفسه الديالكتيكية ايضا . «غير ان المنهج هكذا امر ، وارضاء للمنهج كان على الطريقة ان تخون نفسها» * .

والمفهوم الهيغلي عن العملية التاريخية التي تنقسم الى ثلاث مراحل هو ايضا متناقض جدا . فان المرحلة الاولى (ويربطها هيغل بتاريخ شعوب الشرق القديم) تتميز بكون الانسان لا يعي بعد جوهره الحر ، ولذا كان الجميع هنا عبيدا . وفي المرحلة الثانية من التاريخ العالمي (العالم القديم) ، اخذ بعض الناس يعون ان الحرية انما هي جوهر الانسان ، ولكن الاغلبية لم ترتفع بعد الى هذا المستوى من تطور الوعي وظلت في وضع العبيد . اما المرحلة الثالثة ، فانها تتصف ببلوغ الحرية العامة لان جميع الناس يعون جوهرهم الحر

* ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

الحقيقي . ويجري هذا في العالم المسيحي ؛ والمانيا هي ذروة عملية الوعي الذاتي هذه . وهكذا اعلن هيغل ان الملكية البروسية المتخلفة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، والمصلحة قليلا جدا فقط بدستور ديموقراطي معتدل هي صورة مجسدة عن الروح المطلق وذروة التطور التاريخي .

ثم ان وصف هيغل لفلسفته ليس اقل تناقضا . ففي البدء يجعل هيغل من الحقيقة السرمدية وعملية تطور الوعي البشري اللامتناهية امرا واحدا . ولكن هيغل يرى نفسه مضطرا الى ان يضع حدا لهذه العملية لان منهجه الفلسفي ، مثل اي منهج آخر ، كان يتطلب نهاية . والسبيل الى هذه النهاية ، كان واحدا : الفكرة المطلقة ، التي تنطوي عملية تطورها وانتشارها على تطور البشرية التاريخي ، كان لا بد لها ان تدرك نفسها بالذات . ويعلن هيغل فلسفته تلك النقطة التي يجري فيها ادراك الفكرة المطلقة نفسها بنفسها ، وبالتالي لا تنتهي عملية المعرفة وحسب ، بل ينتهي ايضا تاريخ البشرية . ويستخلص

انجلس قائلا : «ولكن هذا يعني ان كل ما هو عقائدي جامد في منهج هيغل يعلن الحقيقة المطلقة ، وهذا ما يناقض طريقته الديالكتيكية التي تنسف كل ما هو عقائدي جامد . وهذا يعني خنق الجانب الثوري بضغط الجانب المحافظ المضخم الى ما لا نهاية له ، لا في ميدان المعرفة الفلسفية وحسب ، بل ايضا في مجال النشاط التاريخي» * .

ان التناقضات الملازمة لفلسفة هيغل لم تنبع من خصائصها الداخلية وحسب . ففي كثير من الجوانب نبعت كذلك من الظروف الاجتماعية الخاصة للواقع الالماني في ذلك الزمن . كانت الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وثيقة الارتباط بمصالح البرجوازية ، واشتركت في تكوين مفاهيمها ومثلها الاجتماعية والسياسية . اما تحول البرجوازية الالمانية الى طبقة سائدة ، فقد رافقته مضاعفات وتعقيدات كبيرة وجرى ببطء بالغ ، مثله في ذلك مثل قيام وتوطد

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩١ .

اسلوب الانتاج الرأسمالي بوصفه الاسلوب الحاسم في حياة المانيا الاقتصادية . ثم ان البرجوازية الالمانية ، المصابة بالتشتت ، الضعيفة اقتصاديا ، كانت ايضا ضعيفة ومترددة سياسيا . وخلافا للبرجوازية الفرنسية من قبل الثورة ، لم تطمح الى الاستيلاء على السلطة بالعنف ، بل سعت الى توفير ظروف وشروط افضل لاجل تطور الصناعة والتجارة عن طريق الاتفاق مع القوى الاقطاعية السائدة ، واقدمت على المساومة مع الطبقة البائدة بقدر من الرغبة اكبر بكثير مما اقدمت على التحالف مع الشعب الثوري .

ولكن الجانب المحافظ من فلسفة هيغل ، حتى رغم ان هيغل نفسه مال اليه على الاغلب ، لم يستطع ان يخنق كليا جانبها الثوري — الديالكتيك . وبديهي ان الانشاءات النظرية الثقيلة في منهج هيغل الفلسفي قد صعبت فهم جوهر طريقته الديالكتيكية الثوري . «غير ان هذه الانشاءات لا تقوم الا بدور اطارات ، صقالات للصرح الذي يبنيه . ومن لا يتوقف هنا طويلا بل يتوغل في اعماق الصرح الجليل ،

يجد فيه كنوزا لا عد لها ، ولا تزال تحتفظ بكل قيمتها حتى ايامنا هذه» * . ان المفهوم العام عن العملية التاريخية بوصفها عملية مشروعة ، محتمة ، ضرورية ، والافكار الديالكتيكية العبقرية التي صاغها هيغل فيما يتعلق بجميع ميادين المعرفة ، — كل هذا جعل مذهبه يسترعي لزمن طويل : لا انتباه الفلاسفة وحسب ، بل ايضا وعلى العموم انتباه جميع الناس المتعلمين في ذلك الزمن . وعلى الدوام كان تأثير نظرات هيغل في تطور الفلسفة وكل الميدان الروحي في المجتمع يشتد ، لا في السنوات الاخيرة من حياة هذا المفكر ، بل ايضا بعد وفاته في سنة ١٨٣١ .

وتبعا لجانبي مذهب هيغل ، انقسم اتباعه الى معسكرين مختلفين ، سرعان جدا ما بلغت العلاقات بينهما حد العداوة السافرة . وقد احتدم الصراع بين ممثلي هذين المعسكرين

* ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٢ .

في التربة المثالية المشتركة ، ولكن الموقف المضاد من تركة هيغل النظرية ، حين كان يشغل المرتبة الاولى اما منهجه الفلسفي ، واما الطريقة الديالكتيكية ، قد جعل من المستحيل التصالح والتوافق بينهما . ناهيك بان ممثلي الجناح اليساري من المدرسة الهيغلية ، من يسمون بالهيغليين الشباب (واليهم انتمى بعض الوقت الشابان ماركس وانجلس) اخذوا يولون المسائل الاجتماعية والسياسية الحادة قدرا اكبر فاكبر من الانتباه ، شاغلين عند حلها مواقف اكثر فاكثر راديكالية .

كذلك تجلت راديكاليتهم في الموقف من الدين ، في حل مسائل نشوئه ودوره في الحياة الاجتماعية . والى النضال ضد الدين على وجه الضبط ، الذي كان بحكم ظروف ذلك الزمن نضالا سياسيا ايضا ، وجه الهيغليين الشباب قواهم الاساسية . وبما ان العقيدة الدينية هي اقرب قريب الى المثالية الفلسفية ، فان النضال الدائب ضد العقيدة الدينية كان لا بد له من ان يدفع المشتركين فيه الى

مواقع قريبة من المادية ويطرح امامهم ضرورة اعادة النظر بعين نقادة الى آرائهم المثالية . وهذا بالذات ما حدث بالفعل في عدد من الاحوال .

ولقد كان لودفيغ فورباخ الاول بين الذين تخلوا عن معتقداتهم المثالية السابقة وانتقدوا انتقادا قاطعا المثالية الفلسفية باحدث اشكالها — في شخص فلسفة هيغل . كان فورباخ بادئ بدء من ابرع تلامذة هيغل ، ولكنه تحول الى مناضل منسجم ضد «سحر» المذهب الهيغلي الذي سمر العالم الفلسفي وجمّده بسلاسله . وقد اشار فورباخ في عدد من مؤلفاته الى خطأ المبادئ الانطلاقية الاساسية للفلسفة المثالية وعلل ضرورة فهم الواقع فهما ماديا . وبين مؤلفاته يبرز انجلس كتاب «جوهر المسيحية» الذي صدر في سنة ١٨٤١ والذي حظي بشهرة خارقة الاتساع وكان له تأثير جوهري في تطور الفلسفة وكل الحياة الروحية في المانيا . وقد كتب انجلس : «كان ينبغي ان يجتاز الناس الفعل الشافي لهذا الكتاب لكي يكونوا

فكرة عن ذلك . فالحماسة كانت عامة : جميعنا غدونا ، بلحظة ، من انصار فورباخ» * .

وهكذا كانت فلسفة فورباخ المادية شكلا من اشكال قطع الصلة مع الفلسفة المثالية الهيغلية ، وكانت في الوقت نفسه ، كما قال انجلس ، الحلقة الوسيطة بين فلسفة هيغل والفلسفة الماركسية . ان التضاد بين نظرات فورباخ ونظرات هيغل انما هو في المقام الاول التضاد بين المادية والمثالية . ولهذا ، قبل الشروع في تحليل مفاهيم فورباخ الفلسفية تحليلا ملموسا ، تناول انجلس التضاد بين المادية والمثالية على العموم ، وبحث في بداية الفصل الثاني من مؤلفه مسألة لها اهمية مبدئية لاجل فهم الموقف الماركسي من تاريخ الفلسفة العالمية .

---

* ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٥ .

المسألة الاساسية في الفلسفة .
نقد اللاعرفانية والمادية الميتافيزيائية

تعكف الفلسفة ، مثل اي علم آخر ، على حل كثرة بالغة من المسائل المتعلقة بمعرفة الواقع الطبيعي والاجتماعي . ولكن بين هذه المسائل ، كما يرى انجلس ، تبرز من حيث الاهمية مسألة العلاقة بين الفكر والوجود ، بين الوعي والمادة . وهذه المسألة يسميها المسألة الاساسية في الفلسفة ، لان على حلها يتوقف ، بهذا النحو او ذاك ، حل جميع المسائل الفلسفية الاخرى . فان الفيلسوف ، اذ يشغل موقفا معينا في حل هذه المسألة ، انما يحدد بالتالي موقفه المبدئي من العالم بمجمله ، من مسألة امكانية وسبل معرفة الواقع ، وفهمه لجوهر التفكير وقوانينه . وعلى حل هذه المسألة بهذا النحو او ذاك يتوقف في آخر المطاف الموقف من تقييم العملية التاريخية وظواهرها

المختلفة . وبوصف المسألة الاساسية في الفلسفة يبدأ الفصل الثاني من كتاب انجلس : «ان المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ، ولاسيما في الفلسفة الحديثة انما هي العلاقة بين الفكر والوجود . . . وقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين ، وفقا للجواب الذي يجيبون به عن هذه لمسألة . فاولئك الذين اكدوا ان الروح وجدت قبل الطبيعة ، والذين اعترفوا بالتالي ، في آخر الامر ، بهذه الصورة او تلك ، بخلق العالم — . . . الفوا معسكر المثالية . اما اولئك الذين اعتبروا الطبيعة هي الاصل ، فقد انتموا الى مختلف مدارس المادية» * .

من السهل ان نميز في الواقع المحيط بنا نوعين مختلفين من الظاهرات : مادية وروحية (مثالية) . ان المادية ، كما يدل اسمها نفسه ، تنطلق من الاعتراف باسبقية (باولوية) المادة ، باسبقية الوجود ، وثانوية

---

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

الوعي ، ثانوية التفكير . ولقد سبق ان أكد الماديون العفويون في اليونان القديمة ان الانعكاس (الوعي) مشتق من الموضوع المعكوس (العالم المادي) ، وانه لا يمكن له ان يوجد بدونه . وجميع ممثلي المادية اللاحقين ، رغم الكثير من الفوارق الجوهرية جدا احيانا ، قد اتفقوا في حل واحد للمسألة الاساسية في الفلسفة . وعلى المبادئ ذاتها تقوم الفلسفة الماركسية- اللينينية للمادية الديالكتيكية ، موضحة ، اولا ، ان الوعي هو نتاج عملية تاريخية مديدة لتطور المادة . ثانيا ، ان الوعي هو نتاج التطور الاجتماعي . ثالثا ، ان وعي كل انسان بمفرده يتشكل بنتيجة عملية تطور معقدة وطويلة جدا ، حين يبلغ دماغه درجة معينة من النضج ، وحين يكدس ، اذ يتربى في جماعة ، تجربة مهمة اجتماعية بحجم معين ، ويمتلك النطق البين . واخيرا ، تعتبر الفلسفة الماركسية ان الوعي ليس انعكاسا هامدا ، بل انعكاس نشيط ، فعال ، لاشياء وظاهرات الواقع المحيط ، وان الوعي

شرط ضروري لكي يمارس الانسان تأثيرا معاكسا في العالم الخارجي ، لكي يغير الواقع الطبيعي والاجتماعي . وهكذا يقوم بين المادة والوعي تأثير معقد ، ديالكتيكي .

ان خط المادية يعارض خط المثالية التي تعلن ان الاولى ، الاسبق ، شيء غير مادي ، روحي ، فكري ، مثالي . ان هذا الحل للمسألة الاساسية في الفلسفة يجمع شتى وجهات النظر التي تعتبر ان الاساس الاول للعالم هو الفكرة المطلقة او الارادة العالمية ، او الوعي الذاتي او مجمل الاحساسات . والى الفلسفة المثالية تنضم اساسا ، كما سبق ان قلنا ، شتى ضروب التعاليم الدينية ، التي تعتبر هي ايضا ان العالم المادي المنظور مشتق من مبدأ غير مادي ، من العالم الآخر ، من عالم الغيب ، سواء كان المقصود هنا ارواح وشياطين العقائد البدائية ام الاله الواحد للاديان الموحدة ، المؤمنة باله واحد .

اذن ، تبعا لطابع الجواب عن مسألة

اولوية (اسبقية) المادة او الوعي ، تنقسم المذاهب الفلسفية الى مذاهب مادية ومذاهب مثالية . ولكن للمسألة الاساسية في الفلسفة جانبا آخر ايضا يشكل الاساس لاجل التمييز بين الفلاسفة بموجب علامة اخرى . وهذا الجانب يصوغه انجلس كما يلي : «ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، وهذا العالم نفسه ؟ وهل يستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي ، وهل نستطيع في تصوراتنا ومفاهيمنا عن العالم الواقعي ان نكون انعكاسا صادقا عن الواقع ؟» * .

ان الفلاسفة ، كما يؤكد انجلس ، قد اجابوا باغلبيتهم الساحقة في جميع الازمنة عن هذه الاسئلة بالايجاب ، علما بان هذه الاغلبية كانت تتألف على السواء من فلاسفة ماديين وفلاسفة مثاليين . وعلى سبيل المثال عن الفلاسفة المثاليين يشير انجلس الى هيغل الذي لم يعترف بالامكانية المبدئية لمعرفة

* ماركس ، انجلس ، منتخبات في ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

قوانين التطور العالمي وحسب ، بل انتقد الفلاسفة الذين كانوا يتمسكون بوجهة نظر مضادة انتقادا ماحقا . وهؤلاء الفلاسفة الذين اسميت نظراتهم باللاعرفانية (باللاادرية) كانوا ينكرون امكانية اعطاء حل نهائي لمسألة صحة معارفنا عن العالم . ويذكر انجلس اثنين من ابرز ممثلي اللاعرفانية (اللاادرية) — الفيلسوف الانجليزي دافيد هيوم ومؤسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ايمانويل كانط . كان هيوم يعتبر ان احساسات الانسان هي الموضوع الوحيد الذي يستطيع الانسان معرفته ؛ وتبعا لذلك تنحصر مهمة العلم في وصف الاحساسات . اما مسألة معرفة ما يستتبع احساساتنا وما اذا كان يقوم وراءها واقع موضوعي ما ، فان هيوم يعتقد انه يستحيل مبدئيا حلها . ان لاعرفانية كانط تختلف من بعض النواحي اختلافا ملحوظا عن نظرات هيوم . فقبل كل شيء اعترف كانط بوجود العالم الموضوعي ، عالم «الاشياء في ذاتها» ، خارج الوعي البشري . ولكنه انكر امكانية تفهم جوهرها

الحقيقي . وليس في منال المعرفة البشرية ، — سواء كان المقصود هنا المراقبة المباشرة ام التحليل العلمي بواسطة مختلف الادوات او الاجهزة ، سوى الظاهرات اى سوى النسخ الباهتة ، غير الدقيقة عن «الاشياء في ذاتها» ، التي لا تحمل اعلاما صادقا عن الاصول . وهكذا يجمع انكار التشابه المبدئي بين المعارف عن العالم والعالم نفسه ، وبالتالي انكار امكانية معرفة جوهره الفعلي ، هيوم وكانط رغم كل اصالة نظرات كل منهما ، كما يجمعهما مع سائر ممثلي اللاعرفانية .

خلافا للاعرفانية ، تلح المادية الديالكتيكية مع الكثير من التيارات الفلسفية الاخرى على الامكانية المبدئية لمعرفة كل ظاهرة وكل قانون في الواقع الطبيعي والاجتماعي . ومن وجهة النظر هذه ، يعود عدم فهمنا لبعض من الظاهرات او العمليات الى عدم كفاية تطور العلم الذي يدرس هذه الظاهرات او العمليات ، وعدم وجود المعلومات الضرورية عنها بالذات وعن علاقاتها المتبادلة مع العالم المحيط .

ان ترقي العلم العالمي باطراد ، ومنجزاته الباهرة في سبل التسرب الى اسرار الكون العميقة ، تدحض بصورة مقنعة الرأى القائل بوجود جواهر صادقة غيبية ما لظاهرات قابلة للمراقبة ، تلك الجواهر التي تستحيل على المعرفة البشرية كما يزعم . ولقد كتب لينين في انتقاد مذهب كانط بصدد «الاشياء في ذاتها» التي تستحيل معرفتها : «لا يوجد ولا يمكن ان يوجد قطعا اى فرق مبدئي بين الظاهرة والشيء في ذاته . ان الفرق يقوم ببساطة بين ما صار معروفا وبين ما لم تتم معرفته بعد...» *

ومفهوم تماما ان يكون انجلس قد وقف كذلك ضد نظرات ممثلي اللاعرفانية ناعتا اياها «بالاحابيل الفلسفية» . واوضح ان اشد الادلة اقناعا على صحة معارفنا عن العالم ، وبالتالي اقوى الحجج ضد موقف اللاادريين لا تكمن في المعارف ذاتها ، بل في النشاط العملي ، وفي الاختبار العلمي ، وفي الانتاج الصناعي .

* لينين . المختارات في ١٠ مجلدات . المجلد ٤ ، ص ١٢٦ . المادية والمذهب النقدي التجريبي .

«فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية بخلق هذه الظاهرة بانفسنا ، وباحداثها بمساعدة شروطها ، وباستخدامها ، فوق ذلك ، في سبيل اغراضنا ، ففي ذلك القضاء المبرم على مقولة كانط بشأن «الشيء في ذاته»» *. واوضح انجلس فكرته على ضوء مثالين من ميدان العلوم الطبيعية . الاول منهما مأخوذ من الكيمياء التي كانت قد توصلت في ذلك الزمن الى تركيب بعض من التركيبات العضوية من عناصر غير عضوية ، وبينت بالتالي بصورة جلية ملموسة صحة تصورات العلماء عن طابع حتى تلك العمليات الطبيعية التي تستحيل مراقبتها مباشرة . المثال الثاني هو تاريخ اكتشاف (عام ١٨٤٦) كوكب نبتون الذي كان قد اقيم البرهان مسبقا على وجوده وبفضل الحسابات التي اجراها العالم الفرنسي لوفيريه ، والذي اكتشف الفلكي الالماني غاله فعلا وجوده فيما بعد بفضل حسابات لوفيريه .

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٨ .

وهكذا تكون افكار انجلس هذه تعليلا لموضوعة من الموضوعات الاساسية في مذهب المعرفة الماركسي بصدد التطبيق (النشاط العملي) بوصفه المعيار الاساسي لصدق المعارف البشرية . وهي تتطابق كليا مع موضوعة من مؤلف ماركس «موضوعات عن فورباخ» المنشور كملحق للطبعة الاولى المنفردة لمؤلف «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . فقد كتب ماركس : «ان مسألة ما اذا كان التفكير الانساني يتسم بحقيقة موضوعية ليست مطلقا قضية نظرية ، انما هي قضية **عملية** . ففي النشاط العملي ينبغي على الانسان ان يثبت حقيقة تفكيره ، اي فعاليته وقوته ووجوده في هذا العالم . والنقاش حول فعالية او عدم فعالية التفكير المنعزل عن النشاط العملي انما هو قضية **سكولاستية** بحتة» *. ان نظرة انجلس التي بحثناها اعلاه ترقى الى سنة ١٨٨٦ ، بينما كان ماركس قد كتب موضوعاته

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٧ .

هذه قبل ذلك باربعين سنة ، ولكنه توجد بينها ، كما يتبين جيدا : صلة مباشرة تماما ، وهي تقدم البرهان الجلي على الاستمرارية والتعاقب في تطور الموضوعات الاساسية في الفلسفة الماركسية .

كان انجلس بحاجة الى تحليل مضمون المسألة الاساسية في الفلسفة تحليلا مفصلا ، لا لكي يرسم خطا فاصلا مبدئيا بين المثالية والمادية وحسب ، بل ايضا لكي يبين نقطة الانطلاق ونقطة الختام في تطور نظرات فورباخ الفلسفية . فان هذا التطور ، كما سبق ان قلنا ، كان قد تلخص في الانتقال من مواقع الفلسفة الهيغلية المثالية الى مواقع المادية . وفي جميع النقاط الاساسية عارض فورباخ بمفاهيمه فلسفة هيغل ، وصاغ موضوعات مادية بحتا بصدد جوهر العالم ، والعلاقة المتبادلة بين الوجود والتفكير والخ . . ولكن انجلس يشير فيما بعد الى التنافر الجلي بين نظرات فورباخ وبعض آرائه الانتقادية بصدد المادية السابقة والماديين . وهكذا يورد انجلس

كلمات فورباخ التالية : «المادية بالنسبة لي هي اساس بناء الكنه الانساني واساس المعرفة الانسانية ؛ ولكنها ليست بالنسبة لي ، . . . البناء نفسه . فانا متفق تماما مع الماديين فيما يتعلق بالماضي ولست متفقا معهم فيما يتعلق بالمستقبل» * .

قد يخيل اننا نواجه تناقضا صريحا بين نظرة فورباخ هذه وبين الافكار المادية التي دعا اليها . ولكن هذا التناقض وهمي ، كما يبين انجلس ، لان فورباخ ، حين يتحدث عن «المادية» ، لا يقصد كنه القضية ، ولا يقصد موقفا فلسفيا مبدئيا ، بل يقصد مدرسة ملموسة ، محددة تاريخيا ، من مدارس المادية . فان «فورباخ يخلط هنا بين المادية كمفهوم عام عن العالم يقوم على فهم معين للعلاقة بين المادة والروح ، وبين ذلك الشكل الخاص الذي وجد فيه هذا المفهوم عن العالم تعبيرا عنه في مرحلة تاريخية معينة

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٠ .

هى القرن الثامن عشر . وفضلا عن ذلك ، يخلط بين هذه المادية وبين ذلك الشكل المبتذل الممتهن الذى تستمر به مادية القرن الثامن عشر اليوم فى عقول علماء الطبيعيات والاطباء . . .» (*) . ومع استخلاص هـذا الاستنتاج ، اعتبر انجلس من الضرورى ، ان يتناول ، ولو بايجاز ، الخصائص التى كانت تتميز بها مادية القرن السابق والتى طورها فى منتصف القرن التاسع عشر «الماديون المبتذلون» بوخنر وفوغت وموليشوت بشكل مشوه فحملت فورباخ على الوقوف منها موقفا سلبيا .

ومن عداد هذه الخصائص ، يبرز انجلس قبل كل شيء اثنتين هما ميكانيكية وميتافيزيائية نظرات الماديين فى القرن الثامن عشر ، علما بانه يربط وجودهما بمستوى تطور العلوم الطبيعية والانتاج المادى فى ذلك القرن . ان سيادة الميكانيكية فى مفاهيم الفلاسفة ، كما فى مفاهيم علماء الطبيعيات ، انما مردها الى تطـور

(*) ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٠ .

الرياضيات والميكانيك فى ذلك الزمن اكثر مما تطورت جميع العلوم الطبيعية الاخرى . وقد نجم تقدمها المتسارع من ان حل الكثير من القضايا العلمية والعملية كان يتوقف على تطور الميكانيك . فان الحاجات الملحة للملاحة ، والشؤون المنجمية ، والشؤون الحربية ، والحرف ، والبناء ، واعمال الرى ، قد دفعت الى القيام بدراسة عميقة ومنتظمة لظاهرات تحرك الكواكب والنجوم ، وانطلاق الرصاصة وكلة المدفع ، وتذبذب الرقاص ، وحركة سيول المياه ، وغيرها من الظاهرات .

وقد استطاع الميكانيك ان يحل القضايا التى طرحها امامه تقدم المعرفة العلمية وكل مجرى تطور الممارسة البشرية على العموم . وفى غضون القرن السابع عشر ارسيت اسس الميكانيك العلمية واعطيت الدفعة لتطوره الخارق السرعة ، بفضل جهود غاليله وديكارت وهوغنس ونيوتن وغيرهم من العلماء . وبالنتيجة قام الميكانيك بقفزة عملاقة الى الامام وخلف بعيدا وراءه سائر العلوم الطبيعية . وشرع كثيرون من

العلماء يعتبرون الميكانيك علما كليا بمقدوره لا ان يكشف قوانين تطور الطبيعة غير العضوية وحسب ، بل ايضا قوانين تطور الطبيعة العضوية وحتى قوانين تطور المجتمع البشرى ؛ ناهيك بان اكتساب الميكانيك لوضع خاص قد اسهم ، كما اشار انجلس ، الى واقع ان اغلبية العلوم الطبيعية الاخرى كانت لا تزال فى حالة جنينية ولم تستطع ان تقاوم بنجاح محاولات بعض العلماء «التفسير» جوهر وقوانين المواضيع الخاصة لهذه العلوم باسباب ميكانيكية بحتة .

كل هذا يفسر لنا لماذا اعتمد كثيرون من ممثلى العلوم الطبيعية ، وكذلك بعض الفلاسفة ، على الميكانيك وطرائقه للمعرفة لدن تفسير هذه او تلك من ظاهرات الواقع . وقد لقيت الميكانيكية اوسع الانتشار فى نظرات علماء الطبيعيات المتفلسفين (غاليله ، نيوتن) والفلاسفة الماديين (هوبس ، لاميترى ، هولباخ) . فان الفيلسوف المادى الفرنسى لامبترى ، مثلا ، اعتبر ، فى احد مؤلفاته الكبرى — «الانسان-الآلة» ، — الكائن البشرى ، آلة تحرك نفسها

بنفسها مثل آلية الساعة . صحيح انه كان للميكانيكية انصار بين المثاليين ايضا . حسبنا ان نذكر ديكارت الذى اعتبر ان «الروح» هى التى تميز الانسان عن الحيوانات ، وشبه الحيوانات باجهزة اوتوماتيكية ميكانيكية اصطناعية .

وفى معرض الكلام عن سيادة الميكانيكية فى العلوم الطبيعية والفلسفة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تجدر الاشارة الى الدور الايجابى الذى اضطلعت به فى تطور المعارف عن العالم . اولا ، احرز الموقف الميكانيكى من ظاهرات الواقع فى الاونة الاولى نجاحات كبيرة وخلق قاعدة لاجل تطور العلوم . ثانيا ، حاول العلماء الذين سلكوا هذا السبيل ان يجدوا اسسا طبيعية ، مادية ، لمختلف الظاهرات دون اللجوء الى «مساعدة» شتى الاسباب الدينية الصوفية الغيبية . ان تفسير حركات الاجرام السماوية من وجهة نظر الميكانيك قد دحض التصورات الكنسية — الاسكولاستية عن الكنه الربانى للميدان السماوى . وبالنحو نفسه قوض الموقف الميكانيكى من الكائن الحى ، رغم تطرف احادية جانبه ،

النظرة المثالية الدينية الى الحياة كما الى شيء غامض ، سرى ، خارق الطبيعة ، وبذلك فتح الطريق الى معرفة كنهه الحقيقي .

وفي الوقت نفسه ، قدم تطور العلوم الطبيعية والفلسفة ، وكل النشاط العملي البشري ، البرهان الجلي على المحدودية التاريخية للميكانيكية باعتبارها طريقة لتفسير العالم تدعي الشمول . فان الميكانيكية ، بحصرها كل الواقع المتطور المتعدد الاشكال في شكل الحركة الميكانيكي ، والتشكيلات المادية المعقدة في عناصر اولية ، بدائية ، والكل في مجمل بسيط لاجزائه ، لم تستطع ان تفهم التعقد الديالكتيكي الفعلي لحركة وبنية العالم المادي . ولهذا حين تحققت في القرن التاسع عشر ، الواحد تلو الآخر ، اكتشافات اساسية غيرت لوحة العالم العلمية واقتضت بالحاح وثبات التفهم الديالكتيكي ، اصبحت ميكانيكية التفكير عند كثيرين من علماء الطبيعة سبب ازمة دعائمهم العقائدية وتحولهم الى المثالية واللاعرفانية .

اما المحدودية الاصيلة الثانية التي كانت

تلازم المادية القديمة ، فهي الاسلوب الميتافيزيائي لتفكير ممثليها ، عجزهم عن «فهم العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة تتطور تطورا تاريخيا متواصلا» * . وهذه الخاصة الملازمة لشكل تاريخي معين من اشكال الفلسفة المادية كان مرتبطا ارتباطا عضويا بخاصتها الاولى — اى بالميكانيكية بوصفها الطريقة السائدة لفهم العالم . فمن جهة ، كان ماديو القرن الثامن عشر يعترفون بالحركة خاصية مميزة للمادة ، صفة لازبة لا تنفصل عنها . ولم يجادلوا ولم ينكروا واقع ان العالم المحيط بالانسان يتواجد في حالة حركة دائمة ، في حالة تغير دائم . ولكنهم ، من جهة اخرى ، خلصوا حتما الى استنتاجات ميتافيزيائية ، منافية للديالكتيك لانهم حصروا الحركة بكل تعدد اشكالها في شكلها الميكانيكي . يعلم الميكانيك ان الشيء المتواجد في حالة سكون يمكن اخراجه من هذه الحالة وتحريكه بنتيجة دفعه بقوة خارجية

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠١ .

ما . ثم يبرهن ان الشيء ، اذ يتحرك ، اذ ينتقل في المكان ، انما يذلل مقاومة البيئة طالما لم تضعف القوة المؤثرة فيه . اما حين تنضب هذه القوة ، فان الشيء يظل يتحرك لمدة ما بالقصور الذاتي ، ولكنه يتوقف في آخر الامر ويبقى في حالة السكون السابقة الى ان يتلقى دفعة جديدة من الخارج . ونظرا لهذا الفهم لجوهر الحركة وآليتها ، كانت الحركة تبدو شيئا موقتا ، نسبيا ، كعنصر من حالة اعم هي السكون . فان الشيء ، حتى بعد اخراجه من حالة السكون ، حتى في تواجده في حركة ، يسعى مع ذلك الى الحالة الاولية ، ويعود اليها ، عاجلا ام اجلا . ومن هنا ينجم ان هذا المفهوم الميتافيزيائي مناقض مباشرة للمفهوم الديالكتيكي الذي يعتبر السكون كشيء نسبي ، ويعترف بطابع الحركة المطلق .

بحصر الحركة في التنقل الميكانيكي في المكان ، استبعد الميتافيزيائيون من مجال بصرهم مسألة طابع التغيرات الكيفية التي تطرأ على اشياء الواقع المحيط . وقد اعتبروا حركة العالم المادي حركة في دائرة ، حركة تتكرر على الدوام ، وتمر بنفس المراحل ، وتؤول الى نفس النتائج . ومن هنا ينجم ان العالم بكليته ، بوصفه مجمل جميع ظاهرات وعمليات الواقع ، لم يكن له ، في تصورهم ، تطور فعلي ، حقيقي . مثلا ، كانوا يعتبرون ان النظام الشمسي وعلى العموم كل القسم القابل للمراقبة من الكون ، كانا يتواجدان دائما في حالة واحدة اي بالضبط في الحالة التي نراهما فيها الآن . كذلك كانوا يعتبرون الاستنتاج القائل ان سطح الارض كان دائما كما هو الآن استنتاجا طبيعيا تماما . كان العلماء يراقبون تجدد العالم العضوي على الدوام ، ويدرسون عمليات ولادة وحياة وموت مختلف النباتات والحيوانات والناس ، ولكنهم كانوا يعتبرون كل هذا العالم بمجمله ثابتا لا يتغير ، ولم يسحبوا قوانين وجود الافراد على النوع بمجمله ، وانطلقوا من العدد الدائم لاصناف وانواع الحيوانات والنباتات . وحتى تطور المعرفة نظروا اليه بروح الميتافيزياء ، واعتبروه ضربا من بحث عن

حقائق ثابتة لا تتغير ، تعطى بمجملها معرفة عن العالم لا ينضب لها معين .

ان الموقف الميتافيزيائي ، اللاتاريخي من الطبيعة قد رافقه عند ماديي القرن الثامن عشر موقفا مماثلا تماما من الحياة الاجتماعية . فقد زعموا ان طبيعة الانسان تخضع بكليتها لقوانين الطبيعة الخارجية . والطبيعة الخارجية الثابتة التي لا تتغير تناسبها طبيعة الانسان الثابتة التي لا تتغير ، والتي سماتها المميزة وخاصياتها متماثلة تماما في جميع العصور . وعلى العموم كانوا يبرزون في الطبيعة البشرية جانبين ، هما الجانب الاناني ، النابع من سعي الانسان الى الحفاظ على نفسه ، والجانب الايثاري القائم في اساس اتحاد الناس في جماعة . وانطلاقا من هذا الفهم لجوهر الانسان ، بنيت مفاهيم مناسبة لا توضح مسلك مختلف الافراد وحسب ، بل توضح ايضا كل مجرى التطور الاجتماعي . ومن حيث الجوهر ، حرموا البشرية تاريخها بوصفه صعودا متتابعا على درجات النضج الاجتماعي . واعتبروا تطـور

المجتمع ، لا بمثابة تقدم مشروط موضوعيا من اشكال اجتماعية دنيا الى اشكال اعلى (تقدم يتسم ، طبعا ، بطابع معقد ومتناقض جدا) وحسب ، بل ايضا بمثابة عملية تفاعل فوضوي بين شعوب مختلفة ، عملية ذات طيف في غاية السعة — من الحروب حتى الاحلاف الودية . اما اساس هذه العملية ، فقد رأوه في نظرات ومساعي اولئك او هولئك من الشخصيات البارزة التي تسير الجماهير الشعبية وراءها مثل القطيع وراء زعمائه . ومن وجهة النظر هذه ، ظهرت مراحل تاريخية بكاملها ، تشمل احيانا قرونا وقرونا ، بمثابة شعب مُزقية لا مخرج لها من المجرى الاساسي للتطور الاجتماعي . هكذا بالذات اعتبروا التطور القروسطي في اوروبا الغربية واعلنوه مجرد انقطاع في مجرى التاريخ نابع عن سيادة العقيدة الكاثوليكية المتحجرة وعن البربرية العامة التي دامت الف سنة سيادة تامة لا منازع فيها . وفضلا عن هذا لم يأخذوا البتة بالحسبان واقع انه في ذلك العهد بالضبط تشكلت المقدمات لاجل القفزة العاصفة في

الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والروحي التي قام بها المجتمع البرجوازي في تطـــور الحضارة . وقد انكر الميتافيزيائيون التعاقب والاستمرارية في سير العملية التاريخية . وفي هذا الصدد قال انجلس : «. . . وبذلك غدا المفهوم الصحيح عن الصلة التاريخية الكبيرة شيئا مستحيلا ، فكان التاريخ ، في افضل الاحوال ، مجموعة من الامثال والصور في خدمة الفلاسفة لا اكثر» * .

وهكذا يرى انجلس نواقص «الماديـــة القديمة» ، مادية القرن الثامن عشر ، في **الطابع الميتافيزيائي والميكانيكي الذي تتسم به تصوراتها عن جوهر الطبيعة والمجتمع والتفكير** . علما بان احد الاسباب الرئيسية لذلك ، برأي انجلس ، كان يكمن في المستوى غير الكافي لتطور العلوم الطبيعية لم يكن بوسعها ان تساعد الفلاسفة في رؤية طابع العمليات الطبيعيـــة الديالكتيكي . كانت العلوم الطبيعية قد كدست

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

كمية صغيرة جدا من المعطيات التي تدل على تطور الواقع المحيط تطورا لامتناهيا ــ في الزمان والمكان ، ــ وتلك المعطيات التي كان العلماء قد يوصلوا اليها آنذاك لم تكن معممة ومنظمة ومصنفة بغية انشاء نظرية واحدة عن الكون .

ولكن ابتداء من اواسط القرن الثامن عشـــر شقّت اولى الشقوق في لوحة العالم الميتافيزيائية . في البدء صاغ كانط فرضية السمة الطبيعية لنشوء وتطور الارض وكل النظام الشمسي . صحيح ان هذه الفرضية لم تلق تعليلا من العلوم الطبيعية الا بعد مرور سنوات عديدة ، ولكنها بالذات كانت تنطوي على نقطة انطلاق الحركة الى الامام في معرفة القوانين العامة ، الديالكتيكية ، ثم جاءت جملة كبيرة من الاكتشافات فـــي مختلف ميادين العلوم الطبيعية ، ادت الى تأكيد الطريقة التطورية في الجيولوجيا والبيولوجيا وعلم الاحاثة والخ . تأكيدا تدريجيا . ولئن كان الطابع الميكانيكي ، الميتافيزيائي لمفاهيم ماديي القرن الثامين عشر مشروعا ومبررا تاريخيا ، فان ترويج مثل هذه النظرات في اواسط القرن

التاسع عشر على خلفية الاكتشافات العظيمة التي حققتها العلوم الطبيعية والتي بينت بكل وضوح ديالكتيك تطور العالم الطبيعي كان مفارقة تاريخية جلية ، وامسى عقبة في طريق استمرار تقدم المعرفة العلمية . ولكن هذه النظرات بالذات كانت تدافع عنها مؤلفات بعض من علماء الطبيعيات المتفلسفين من القرن التاسع عشر واشهرهم العلماء الالمان بوخنر وفوغت وموليشوت . فضلا عن تعميم منجزات العلوم الطبيعية ، وعن نقد العقائد الدينية من مواقع العلم ، دعوا الى موقف مبسط ، ميكانيكي من معرفة جوهر الانسان والمجتمع . وقـــد تجاهلوا طبيعة الوعي الاجتماعية ، وزعموا ان مضمونه يحدده بصورة رئيسية القوام الكيماوي لمنتوجات تغذية الناس . وانطلاقا من هذا ، اعتبروا ان السبب الاساسي ، مثلا ، لوجود العبودية وتشكل الوعي المناسب عند الشعوب المستعمرة هو التغذية النباتية التي كانت تلجأ اليها على الاغلب . واعتبروا التفكير ضربا خاصا من مادة هي نتاج الدماغ الذي يعمل مثل

سائر اعضاء الانسان الاخرى (وقد زعم فوغت على الاخص ان الدماغ ينتج الافكار كما ينتج الكبد الصفراء) .

وقف ممثلو هذا الاتجاه اجمالا مواقف مادية ، ولكن انجلس نعت نظراتهم «بالمادية المبتذلة» بسبب الموقف المبسط من القضايا المذكورة ومن كثير من القضايا المعقدة الاخرى في الفلسفة والعلوم الطبيعية . كان الماديون المبتذلون يروجون على نطاق واسع نظراتهم في مؤلفات صدرت وترجمت غير مرة الى كثير من اللغات الاوروبية . وبفضل هذا ، اقتصر مفهوم «المادية» بالنسبة لقسم كبير من جمهور القراء على نوعها هذا بالذات . وبديهي ان فورباخ ، الذي كان بعيدا عن هذا التفسير البدائي جدا لجوهر الانسان ونفسيته ، لم يشأ ان يشبهوا مذهبه بمثل هذه المادية او حتى ان يقربوه منها . وقد قال انجلس : «كان فورباخ على حق تماما حين نفى عنه كل مسؤولية بصدد هذه المادية ، ولكنه لم يكن من حقه ان يخلط بين تعليم المبشرين المتجولين وبين

المادية على العموم» .

ان فورباخ الذى رفض موقف الماديين المبتذلين المبسط قصدا وعمدا من معرفة العالم ، والذى انتقد عن حق وصواب ما يلازمهم من نواقص ، لم يستطع مع ذلك ان يتغلب كليا على ما يلازم نظراتهم من احادية جانب ومن ميتافيزيائية ، ولم يرتفع الى فهم قوانين العالم المادى والروحى الديالكتيكية . وقد بين انجلس ان مذهب فورباخ المادى ، مثله مثل انشاءات الفلاسفة الماديين السابقين النظرية ، كان غير منسجم فى عناصر جوهرية . اولا ، اعترف فورباخ بضرورة وخصب التحالف الوثيق بين الفلسفة والعلوم الطبيعية ، ولكنه لم يستطع ان يعمم المادة التى جمعتها العلوم الطبيعية ويصوغ نظرة تاريخية حقا الى الطبيعة . ويعتبر انجلس ان هذا لم ينجم عن اسباب موضوعية مرتبطة بمستوى تطور العلوم وحسب ، بل نجم ايضا عن الظروف الذاتية للنشاط النظرى الذى بذله

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

هذا الفيلسوف الالمانى . فان فورباخ الذى اضطر الى العيش زمنا طيلا فى قرية نائية مفصولة عن العالم الخارجى ، لم يستطع ان يتتبع على الدوام احدث اكتشافات العلوم الطبيعية وان يكون دائما على علم بجميع مكتسبات التفكير النظرى . ويلقى انجلس الذنب فى ذلك على «اوضاع المانيا المؤسفة التى كانت تجعل كراسى تدريس الفلسفة يحتلها الاختياريون المتفلسفون وحدهم ، فى حين ان فورباخ الذى كان ارفع من جميع هؤلاء التافهين الى ما لا حد له ، كان عليه ان يحيا حياة الفلاحين وان يقبع فى قرية نائية» * .

ثانيا — وهذا هو الامر الاهم — تجلى انعدام الانسجام فى المادية الفورباخية (كما فى عموم المادية السابقة لماركس) فى ان فهم الواقع الاجتماعى قد بنى من حيث الجوهر على اساس غير مادى .

ولم يكتب لفورباخ ان يسحب المادية على معرفة قوانين التاريخ البشرى وان ينظر الى

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٣ .

مضمون العلوم عن المجتمع نظرة مادية . ومن جديد يرى انجلس السبب الرئيسي لذلك في عزلة فورباخ الاضطرارية التي اضطرته «الى ان يضع افكاره في عزلة كاملة : وهو الذي كان يحتاج من حيث طبعه اكثر من اي فيلسوف آخر الى ان يتصل بالمجتمع ، بدلا من ان يبدعها في لقاءات ودية او عدائية مع من هم من منزلته» * .

وهكذا يتحول المادي فورباخ في تفسير الحياة الاجتماعية الى مثالي . ومن الطريف ان شتاركه ايضا نعت فورباخ بالمثالي ولكنه لم ير مثاليته حيث كانت بالفعل . فقد كتب شتاركه : «فورباخ مثالي : انه يؤمن بتقدم الانسانية» واضاف : «ومع ذلك ، تبقى المثالية اساسا ، قاعدة لكل شيء . ان الواقعية فقط تقينا من الضلال حين نتابع مساعينا المثالية . اليست الشفقة ، والحب ، وخدمة الحقيقة

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٤ .

والحق قوى مثالية ؟» * .

وفي معرض تحليل آراء شتاركه ، بين انجلس ان هذا «الباحث» لابداع فورباخ يحاكم ، اساسا ، بنفس طريقة التافه الضيق الافق الذي اخذ يفهم ، بتأثير افتراء الكهنة على المادية تأثيرا دام سنوات طويلة ، ان المادية تعني «الشره ، والسكر ، والشهوة ، والملذات الجسدية ، والغرور ، وحب المال ، والبخل ، والطمع ، والركض وراء الارباح ، والمضاربات في البورصة ، — اي بالاختصار ، كل المآثم الخسيسة التي يرتكبها هو نفسه خفية . ويفهم من المثالية الايمان بالفضيلة ، والحب للانسانية جمعاء ، وبوجه عام ، الايمان «بالعالم الافضل» الذي ينادي به امام الآخرين ، ولكنه هو نفسه لا يعتقد به الا حين يتوجب عليه ان يجتاز مرحلة الافلاس او الصداع بعد السكر التي تتبع بالضرورة

* استشهاد اورده انجلس . ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٤ .

تبذيره «المادى» المعتاد »[*] .

وبديهى ان مثالية فورباخ كانت تختلف تماما عما حاول شتاركه ان يراها . وقد خصص انجلس الفصل الثالث من مؤلفه لعرض جوهر المثالية الفورباخية الفعلى .

[*] ماركس وانجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٥ .

ان التناقض بين التفسير المادى للطبيعة وبين الفهم المثالى للحياة الاجتماعية هو التناقض الاساسى فى مذهب فورباخ الفلسفى . وقد غدا هذا التناقض السبب الرئيسى لهذا الواقع ، وهو ان هذا المذهب الذى اعطى فى حينه تطور النظريات الفلسفية والاجتماعية السياسية بثة جبارة قد فقد مع ذلك حيويته واهميته بسرعة كبيرة وغاب فى حقل تاريخ الفكر البشرى . ان مصادر هذا التناقض تكمن فى فلسفة فورباخ بالذات ، فى مبادئها الاساسية ، المنطلقية ، التى يجب الاطلاع عليها وان بأعم نحو .

لقد جاء فورباخ الى المادية ، كما سبق ان قلنا ، عبر الانتقاد المدفوع الى نهايته المنطقية للدين ولاقرب قريباته ــ الفلسفة المثالية ، وذلك ، قبل كل شيء ، فى شخص المثالية المطلقة

الهيغلية . وقد رأى عيب العقيدة المثالية الاساسي في اعتبار الوجود والفكر امرا واحدا ، في الاعتراف بالفكر ، اى المبدأ المثالي ، مصدر كل كائن . وخلافا للمثالية اكد فورباخ ان العالم مادي من حيث جوهره ، وانه يوجد خارج الفكر البشري الذي يعرفه وبصورة مستقلة عنه . ان الطبيعة ، بكل تنوع وتعدد مظاهرها ، هي منبع واساس وجود الانسان ، وهي تقرر اصله وتطوره . والانسان هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة ويخضع ، مع قوانينه الخاصة ، لنفس القوانين الموضوعية التي تخضع لها سائر الكائنات الطبيعية . فلا داعي للبحث ، لاجل تفسير الطبيعة ؛ ولاجل تفسير الوجود البشري ، عن اسباب ما غير التي نراها في الواقع المحيط بنا . وعدا عالم الظاهرات الطبيعية الفعلي ، لا وجود لاي عالم آخر ، غيبي او فائق الطبيعة . وتبعا لذلك ، رأى فورباخ المهمة الاساسية التي تواجه «الفلسفة الجديدة» التي ابتدعها «في حصر كل ما هو خارق للطبيعة في الطبيعة بواسطة الانسان ،

وفي حصر كل خارق للانسان في الانسان بواسطة الطبيعة» * .

اسميت فلسفة فورباخ المادية بالفلسفة الانتروبولوجية ** لان مؤسسها جعل الانسان في مكان الصدارة من تعاليمه واعلن ان معرفة الانسان والطبيعة التي تلده هي الهدف الاساسي للفلسفة والعلوم الطبيعية . وكتب يقول : «ان الفلسفة الجديدة تجعل من **الانسان** ، **بما في ذلك الطبيعة** بوصفها اساس الانسان ، الى الموضوع **الوحيد والكلي والاسمى** للفلسفة وتحول بالتالي **الانتروبولوجيا** ، **بما فيها الفيزيولوجيا الى علم كلي**» *** .

ان مادية فورباخ الانتروبولوجية تنطلق من اعتبار الانسان كائنا نفسانيا فيزيولوجيا . فان الانسان ، بنظر هذا الفيلسوف الالماني ، هو في آن واحد موضوع مادي وذات مفكر ؛ وهو

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1904, Bd. 2, s. 390.

** من كلمة «انتروبولوجيا» Antropologie وتعني علم الانسان .

*** المرجع نفسه ، ص ٣١٧ .

عبارة عن وحدة لا تنفصم عراها بين المبدأ المادى والمبدأ الروحى . ومن هذا الموقف رفض فورباخ تصورات المادية المبتذلة عن الانسان بوصفه آلية ما من آليات الطبيعة . ولكن انتروبولوجيا فورباخ ارتكزت على تفسير بيولوجى (وليس على تفسير اجتماعى) لطبيعة الانسان ، الامر الذى حال دونه ودون الخروج من اطار الموقف الميتافيزيائى من معرفة العالم . ولهذا السبب بالذات ، كما يشير انجلس ، تبدو تعاليم فورباخ الفلسفية ، من حيث مضمونها الايجابى ، افقر بكثير من مثالية هيغل الدياليكتيكية التى يخفى غلافها الصوفى تحليلا عميقا لقوانين العالم الفعلى الاساسية . وقد قال انجلس : «اما عند فورباخ ، فالامر بالعكس تماما . فهو من ناحية الشكل واقعى ، اذ يتخذ نقطة الانطلاق الانسان ؛ ولكنه لا ينبس ببنت شفة عن العالم الذى يعيش فيه هذا الانسان ، ولهذا يظل الانسان عند فورباخ دوما نفس الانسان المجرد الذى . . لا يعيش فى عالم واقعى ، متطور تاريخيا ومعين تاريخيا ؛ ورغم انه على

صلة مع اناس آخرين ، الا ان كل واحد منهم مجرد بقدر تجرده هو نفسه» * .

وهكذا اكتفى فورباخ بتحليل طبيعة الانسان من جانبها البيولوجى لوجه الحصر ؛ واعلن ان الانتروبولوجيا علم كلى قد يساعد فى فض جميع اسرار الوجود البشرى ، وبذلك ظل من حيث جوهر الامر فى نفس المستوى الذى بلغه ماديو القرن الثامن عشر الذين يتقدمهم . وبالفعل ، اذا كان الانسان يبرز عند هؤلاء الماديين فردا مجردا ، نتاجا هامدا للبيئة الاجتماعية المحرومة من التطور التاريخى الحقيقى ، فان «انسان» فورباخ فرد بيولوجى ليس اقل تجردا ، فرد مفصول اصطناعيا عن بيئته الاجتماعية ، ومدروس خارج ظروف وجوده الاجتماعى التاريخية الملموسة وخارج نشاطه العملى . كذلك لا تتطور طبيعة هذا الانسان ، فهى سرمدية ، كما ان مطامحه الاساسية التى تحدد تصرفاته سرمدية مثل طبيعته . ان لاتاريخية مادية فورباخ الانتروبولوجية

* ماركس وانجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٩ .

وميتافيزيائيتها قد كانتا السبب الاساسى لطابع مفاهيمه السوسيولوجية المثالى . وقد اشير الى هذا فى المؤلف المشترك «الايديولوجية الالمانية» الذى سبق ان كتبه ماركس وانجلس فى ١٨٤٥ — ١٨٤٦ : «. . . وبما ان فورباخ مادى ، فان التاريخ يقوم خارج مجال بصره ؛ وبما انه يدرس التاريخ ، فانه ليس البتة ماديا» * .

ويبين انجلس بجلاء فى الفصل الثالث من مؤلفه الطابع المثالى الذى يلازم فهم فورباخ لجوهر الحياة الاجتماعية ، والذى تبدى ببالغ الوضوح فى نظراته الى الدين والعلاقات الاخلاقية .

ان النضال ضد الدين لم يكن بالنسبة لفورباخ نقطة الانطلاق من المثالية الى المادية وحسب ، بل اصبح كذلك القضية الرئيسية فى حياته . وخلافا لنظرات الكثيرين من الفلاسفة السابقين ، وفى المقام الاول بينهم المثاليون ، اعتبر فورباخ الفلسفة والدين فهمين للعالم ينفى احدهما الآخر . ولم يرَ سبب حيوية العقائد

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٢٧ .

الدينية فى خداع الجماهير الشعبية الجاهلة وحسب ، كما اثبت المنورون الفرنسيون ، بل فتش كذلك عن الاسباب الحقيقية لنشوء الدين ووجوده فى الانسان بالذات وفى ظروف حياته ، وقبل كل شىء فى الصلة المتبادلة بين الناس والطبيعة ، وفى الصلة المتبادلة بين الناس انفسهم . ان الدين ، حسب فورباخ ، هو نتاج النفسية الانسانية ؛ ولكنه لا ينبع من عقل الانسان ، بل ينبع من خياله ، من تصوره . وقد اكد فورباخ انه يجب اعتبار الانفعالات ، والاحساسات ، التى تنشأ فى الانسان فى سياق التفاعل مع العالم المحيط السبب الفعلى للدين . ان الانسان يتخطى بقوة تصوره ، بقوة خياله ، اطار التجربة الحسية المباشرة من المعاشرة مع الطبيعة ، ويخلق كائنـــا ربانيا ، كلى الجبروت ، كلى الخير ، حكيما ، قائما فوق العالم . وفى الدين ينعكس العالم والانسان انعكاسا مشوها ، خياليا ؛ وفيه تبرز الاشياء والظاهرات ، لا بالصورة التى تتواجد بها فى الواقع ، بل مشوهة بمرآة التصور المريض .

ان الدين يجرد الانسان من قواه وخاصياته ، يؤلهها ، ويعارض بها الانسان بوصفه كائنا مستقلا . وقد كتب فورباخ : «ان الكائن الربانى لا يعدو ان يكون جوهرا انسانيا مطهرا ، محررا من الحدود الفردية ، اى من الانسان الفعلى ، الجسدى» * .

ان الناس يضفون على الآلهة جميع الصفات التى يقدرونها اكثر ما يقدرون فى زمن معين فى انفسهم بالذات . وهذا ما يفسر ، من جهة ، وجود آلهة مختلفة عند الشعوب ذاتها فى مختلف مراحل تطورها التاريخى ، ويحدد ، من جهة اخرى ، وجود آلهة واحدة من حيث مواصفاتها الجوهرية عند مختلف الشعوب التى بلغت مستوى واحدا تقريبا من التطور . وفى معرض السخر من تبعية التصورات الدينية عن الاله حيال تصورات الناس عن انفسهم بالذات ، لاحظ فورباخ انه لو كانت الطيور تؤمن فى الاله ، لكان بدا لها كائنا ذا ريش ، لان

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1903, Bd. 6, s. 17.

القدرة على الطيران بمساعدة الاجنحة هى بالنسبة للطيور شرط ضرورى للوجود العادى .

ويرى فورباخ ان شعور الانسان بالتبعية والمحدودية والعجز حيال العالم الخارجى يقوم فى اساس الاوهام الدينية . وقد كتب فى مؤلفه «محاضرات فى جوهر الدين» يقول : «اذا نظرنا الى اديان من يسمونهم بالمتوحشين الذين يحدثنا عنهم الرحالة ، وكذلك الى اديان الشعوب المتمدنة ، واذا نظرنا الى روحنا بالذات التى هى فى متناول مراقبتنا مباشرة وبدون خداع ، فاننا لا نجد تفسيرا آخر للدين ، نفسانيا ومناسبا وواسع الحيازة غير شعور او ادراك التبعية» * .

ان الانسان يدرك قبل كل شىء تبعيته التامة حيال الطبيعة ، حيال قواها الرهيبة ، التى تهدد على الدوام وجوده . ولهذا السبب بالذات كانت الطبيعة تاريخيا اول موضوع للعبادة الدينية .

ان شعور الخوف هو التعبير الاوسع انتشارا

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1908, Bd. 8, s. 31—32.

والاشد وضوحا عن التبعية . وهذا الشعور بالذات يقوم في اساس العقائد الدينية ، سواء منها عقائد المتوحشين البدائيين ام عقائد الشعوب المتمدنة ، بما فيها اتباع الدين المسيحي وسائر الاديان العالمية . ان فورباخ يرى مصدر الدين في الانانية لان شعور التبعية قد ينجم من عناية الانسان الانانية بشخصه الكريم . وهذا يعني ، بتعبير آخر ، ان الدين ينبع من حب الانسان لنفسه بالذات ، من سعيه وراء السعادة ، ويشكل بالنسبة للناس وسيلة للعزاء ، لانهم يأملون في تحقيق احلامهم بتوسلهم من الالهة .

ومن الممكن ان نجد في مؤلفات فورباخ آراء تتعلق سواء بالشرطية الطبيعية ام بالشرطية الاجتماعية لنشوء العقائد الدينية . فقد جاء ، مثلا ، قوله ان ويلات الحروب وفظائعها ، مثلها مثل الكوارث الطبيعية ، تجبر الناس على التوسل من الرب ، وتخلق المشاعر الدينية . وفي مكان آخر ، يحلل فورباخ ظروف نشوء العبادة الدينية وظهور مختلف الطقوس الدينية —

الصلاة ، الندم ، التضحية ، وما الى ذلك ، — فيقيم صلة مباشرة بينها وبين طابع العلاقات الاجتماعية وشكلها ، ويشير الى ان الناس ينظرون الى الاله كما اعتادوا ان يروا الى حكامهم ؛ وانهم يسعون الى كسب رحمة الرب ، بنفس الوسائل التي يسعون بها الى استمالة حكامهم : بواسطة التضرعات والتضحيات والتقديمات .

ولكن نادرا جدا ما تظهر هذه الآراء بصدد الاصل الاجتماعي للدين . وهي تبقى مجرد تخمينات ولا تدخل المنهج العام لنظرات فورباخ بصفة جزء مكون عضوي . اما اجمالا ، فان فورباخ مثالي في فهم جوهر الدين واصله ، الامر الذي ينجم حتما من انتروبولوجيته .

ان فورباخ على حق حين يقول ان الخوف ولد التصورات الدينية ، وان شعور التبعية ، والسعي الى صيانة الذات يجبران الانسان على تعليق الآمال على الرب . ولكن هذه المشاعر هي ، بالنسبة له ، قبل كل شيء ، نتاج لطبيعة الانسان البيولوجية الثابتة التي لا تتغير .

ولكن اضفاء صفة الاطلاق على هذا العامل البيولوجي برافقه تجاهل تام تقريبا للظروف الاجتماعية ولاسيما للظروف الاقتصادية . وخارج مجال بصر فورباخ تبقى عملية تطور وتكاثر قوى المجتمع المنتجة ؛ التي يتحرر الناس في سياقها ، من جهة ، من التبعية المرهقة حيال القوى الطبيعية العمياء ؛ ويشعرون اكثر فاكثر ، من جهة اخرى ، بتبعيتهم حيال القــــوى الاجتماعية مع انقسام المجتمع الى طبقات متضادة ، ومع ظهور استثمار واضطهاد الاغلبية من قبل الاقلية . ان الاهتمام الخارق باساس العقائد الدينية النفساني وتجاهل جذورها الاجتماعية في الوقت نفسه هما اللذان يحددان ما تتسم به نظرات فورباخ الى الدين من طابع مثالي عام .

وحين ابان فورباخ مصادر الدين الارضية ، ركز جل الانتباه على ذلك الدور السلبي الذي يضطلع به الدين في حياة الناس . فبما ان الاله ، حسب تصورات فورباخ ، كان في البدء انعكاسا لجوهر الانسان ، فانه يغترب

فيما بعد عن الانسان ، ويصبح موضوعا مستقلا . فلا ينسبون الى الاله وجودا مستقلا وحسب ، بل يحولونه من مخلوق من صنع الانسان الى خالق للانسان ، الى السبب الاول لكل موجود ؛ وبذلك يقع الانسان في تبعية «الكائن الاعلى» الذي اختلقه بنفسه . ان الدين ، كما يرى فورباخ ، يشل ارادة الانسان ورغبته في حياة افضل في هذا العالم ، في العالم الفعلي . وهو يستعيض عن السعي الى تحويل هذا العالم بانتظار المكافأة المقبلة الخارقة الطبيعة باستكانة وصبر . وفضلا عن ذلك ، يعيق الدين حتى تعميق ونشر المعارف عن العالم ، ويغرس الجهل في صفوف الجماهير الشعبية . وعلى مثال المسيحية يبين فورباخ ان «**الدين لا ينطوى** اساسا **على مبدأ الثقافة والتعليم** ، لانه لا يتخطى حدود ومصاعب الحياة الارضية **الا بالخيال والاله والسماء**» * .

ان فورباخ ينتقد الدين انتقادا عميقا ومعللا

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1903, Bd. 6, s. 261.

بوصفه مصدرا للكذب والجهل وخمود الجماهير الشعبية الاجتماعي والسياسي ، ولكنه ، كما يلاحظ انجلس ، «لا يريد مطلقا ان يلغي الدين ، انما يريد ان يحسنه» * . ويبين فورباخ كذب جميع التعاليم الدينية القائمة ، ولكن لا لازالة الدين كليا من حياة البشر ، بل لبناء دين جديد ، حقيقي ، يناسب طبيعة الانسان الحقيقية ، ويساعد الناس في بلوغ السعادة الفعلية ، لا في السماء ، بعد المحاكمة الربانية العليا ، بل على الارض .

ينطلق فورباخ من الاعتراف بضرورة الدين في المجتمع البشري ، لا في الماضي فقط ، بل ايضا في المستقبل . وفضل عن ذلك ، يفسر الدين بصورة اوسع مما كان مصطلحا عليه ، ولا يحصره في الاشكال التي كانت قائمة ولا تزال قائمة للعقائد الدينية . وفي هذا الصدد كتب انجلس يقول : «فالدين ، تبعا لنظرية فورباخ ، هو علاقة قلبية بين الانسان والانسان

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٦ .

قائمة على العاطفة ، علاقة كانت حتى الآن تبحث على حقيقتها في الانعكاس الخيالي للواقع — بواسطة اله واحد او عدة آلهة ، هذه الانعكاسات الخيالية للصفات الانسانية — وتجدها الآن ، مباشرة ، ودون اي وسيط ، في الحب بين «انا» و«انت»» * .

وهكذا لا يحتاج دين فورباخ الجديد الى الاله بوصفه كائنا خياليا جبارا يتوكل الانسان على رحمته ومساعدته . وليس لهذا الدين الجديد طقوس ، وليس به حاجة الى الكنيسة مع خدمها الكثيرين . وهذا الدين «الحقيقي» ليس سوى تأليه للعلاقات بين الناس : وهو يقوم على المبدأ القائل «الانسان للانسان اله» ، علما بان فورباخ لا يرى في جميع العلاقات البشرية سوى جانب واحد هو الاخلاق التي ترتكز على سعي الانسان بالفطرة الى السعادة . ان العلاقات الاخلاقية بين الابناء والاباء ، بين الاخوة والاخوات ، بين الازواج والزوجات ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٦ .

بين الناس على العموم ، هي ، برأي فورباخ ، علاقات دينية فعلا . وبما ان فورباخ لا يرى في حياة الناس العملية ، المادية تلك القوى التي تربطهم بعضا الى بعض ، وتجبرهم على الاتحاد في جماعة ، فانه يضطر الى البحث عن هذه القوى ، لا في الحياة المادية ، بل في الحياة الروحية ، ويجدها في الدين . اما «البرهان» بالنسبة له ، فهو واقع ان كلمة religion (الدين) باللغة اللاتينية كانت تعني في البدء «الصلة» . ومن هنا خلص فورباخ الى القول ان كل صلة متبادلة بين شخصين هي دين . وواضح ان يكون القراء باغلبيتهم الساحقة قد استقبلوا بسخرية هذه التعليلات في مؤلفات فورباخ ، كما ان انجلس كتب ان «امثال هذه التلاعبات في اصل الكلمات تؤلف آخر مخرج للفلسفة المثالية» * .

ان جميع الاديان التي كانت قائمة حتى الآن قد ظهرت ، كما يؤكد فورباخ ، من

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٧ .

حب الانسان لنفسه . الحب انما هو القانون الاعلى للوجود الانساني ، وهو يشكل اعمق اعماق جوهر الانسان . وقد اتخذ الحب اشكالا خيالية في جميع الاديان القائمة . اما في الواقع ، كما يلاحظ فورباخ ، فان الحب هو بحد ذاته الدين الحقيقي . وقد قال : «الحب انما هو الاله نفسه ، وبدون الحب ، لا اله» * .

وفي معرض انتقاد آراء فورباخ حول ضرورة الدين لاجل اقامة علاقات عادية بين الناس ، يلاحظ انجلس ان مثالية هذه الآراء تكمن بالضبط في اضفاء الطابع الديني على جميع العلاقات بين الناس المرتكزة على الميل المتبادل — الصداقة ، التعاطف ، التضحية بالذات ، الحب الجنسي . ان فورباخ يرفض الاعتراف بالقيمة الذاتية لهذه العلاقات ، وهو لا يريد قبولها الا بعد تكريسها بكلمة «الديـــن» (« religion ») . وفي آخر المطاف ، يخلص

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1903, Bd. 6, s. 59.

فورباخ الى القول انه يعلن الحب الجنسي احد الاشكال العليا ، ان لم يكن الشكل الاعلى ، لاعتناق دينه الجديد .

وبتعاليم فورباخ بشأن الدين ، ترتبط ارتباطا لا انفصام له تعاليمه الاخلاقية التي ينتقدها انجلس هي ايضا في الفصل الثالث من مؤلفه .

من افضال فورباخ انه يوجه تعاليمه الاخلاقية قبل كل شيء ضد الاخلاق المسيحية ، منتقدا اياها انتقادا حادا ، ماحقا . وهو يرى انه لا يصح ان تكون الاخلاق الدينية ضابطا للعلاقات المتبادلة البشرية ، لان علاقات الانسان بالاله تعلو على كل شيء بنظر الدين ، ومن بعدها فقط تأتي العلاقات بين الناس .

ويرى فورباخ انه لا توجد اية صلة داخلية بين العقائد الدينية والقواعد الاخلاقية ، وانها ، فضلا عن ذلك ، غالبا ما تناقض بعضها بعضا حين تلقي المسلمات نفسها تقديرات متضادة من وجهة نظر الاخلاقية البشرية ومن جانب المقتضيات الدينية . ويبرهن فورباخ ان الدين ، اذ يطلب من الناس نكران الذات

من اجل الاله ، انما يشوه بالتالي مفهوم الخير ، ويعارض بفهمه الخاص للفضيلة المقتضيات الفعلية للطبيعة البشرية . وقد قال فورباخ : «**حيث ترتكز الاخلاق** على اللاهوت ، ويرتكز **الحق** على **الاوامر الربانية** ، يمكن تبرير وتعليل اشد الاشياء اغراقا **في اللااخلاقية والظلم والخزي والعار**» * .

ويعارض فورباخ الاخلاق الدينية غير الطبيعية وغير المعقولة بمذهبه عن الاخلاقية ، المنطلق من وحدة الناس والصلة المتبادلة فيما بينهم . وهو يرى ان الحياة البشرية كلها ترتكز على السعي وراء السعادة ، الملازم لكل انسان منذ الولادة . ولكن النجاح في تحقيق هذا السعي يتطلب مراعاة شرطين ضروريين . اولا ، يجب ان يرى المرء سلفا وكليا العواقب المحتملة لتصرفاته ، التي غالبا جدا ما يتسم كثير منها بطابع سلبي . ثانيا ، اننا اذ نلبي سعينا وراء السعادة ، لا يمكننا ان ننسى ان اناسا آخرين

* Feuerbach L. Sämmtliche Werke. Stuttgart, 1908, Bd. 9, s. 330.

يتصرفون كذلك مثلنا وانه لا يحق لاعمالنا فى اى حال من الاحوال ان تعيقهم .

ويحلل انجلس هذه الموضوعات فى تعاليم فورباخ الاخلاقية ، ويشير الى طابعها التجريدى والتافه : «ان قواعد الاخلاق الاساسية عند فورباخ ، التى تنجم عنها جميع القواعد الاخرى هى ، اذن ، التضييق العقلانى بالنسبة لانفسنا والحب — الحب دائما ! — فى العلاقات مع الآخرين . ولا تستطيع محاكمات فورباخ النظرية جدا ولا مدائح شتاركه المفرطة اخفاء حقارة وتفاهة هاتين الموضوعتين او الثلاث» * .

وسبب ذلك ، كما يلاحظ انجلس ، هو الموقف المجرد الانتروبولوجى الذى يقفه المفكر الالمانى فورباخ من الحياة الاجتماعية . فمن جهة ، يتناسى فورباخ كليا الظروف المادية لحياة الناس . وخارج مجال بصره تبقى قضية تلبية حاجات الانسان المادية الاولية ، الامر الذى لا يمكن بدونه لا السعي وراء المتعة

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١١ .

العليا الروحية وحسب ، بل ايضا حياته بالذات . ومن جهة اخرى ، لا تأخذ مقتضيات التعاليم الاخلاقية الفورباخية بالحسبان اطلاقا الظروف التاريخية الملموسة لحياة المجتمع . ودعوة فورباخ الى مراعاة حق جميع الناس فى تحقيق سعيهم الى السعادة قد بدت بمثابة سخر وهزء فى المجتمع البرجوازى الذى تمزقه تناقضات طبقية وقومية وتناقضات اجتماعية اخرى فى غاية الحدة ، فى مجتمع تغرق اقليته فى البذخ على حساب الاغلبية واستثمارها .

كتب انجلس يقول : «وبالاختصار حدث لنظرية الاخلاق عند فورباخ مثل ما حدث لجميع النظريات التى تقدمتها . فهى مفصلة لجميع الازمنة ، ولجميع الشعوب ، ولجميع الاوضاع ، ولهذا السبب بالضبط ليست صالحة للتطبيق فى اى وقت وفى اى مكان» * . لقد اراد فورباخ ان يصوغ اخلاقا مطلقة تضبط سلوك الافراد وحياة المجتمع بأسره ، ولكنه بنى انشاء

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٣ .

نظريا آخر ، عاجزا تماما امام العالم الفعلى .

ان فورباخ لم يستطع ، سواء فى فلسفة الدين ام فى علم الاخلاق ، ان يخرج من مملكة التجريدات الى العالم الفعلى ، الى الناس الاحياء ، الملموسين ، ولم يستطع ان يعرف المجتمع فى تطوره التاريخى ، والناس فى نشاطهم المادى التحويلى ، وان يكشف الصلة الفعلية بين امرؤ بمفرده وبين المجتمع بأسره . ولكن الانتقال من التنظير الفلسفى التجريدى الى معرفة الحياة الاجتماعية وتغييرها بصورة جذرية كان قد نضج : فجاءت تعاليم فورباخ الفلسفية تشير الى الاتجاه وتعطى بثة اضافية لاجل هذا الانتقال .

الانقلاب الثورى فى الفلسفة

ان الفصل الختامى فى مؤلف انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» هو ، من حيث الجوهر ، لمحة وجيزة فى تاريخ انشاء الفلسفة الماركسية المادية الديالكتيكية وفى جوهرها . وقد كشف انجلس مضمون الفلسفة الماركسية ودورها التاريخى بوصفها تعليلا نظريا لنضال الطبقة العاملة الثورى ؛ وبين الفرق الجذرى بينها وبين المناهج الفلسفية السابقة ، وبذلك اكد بصورة مقنعة الاستنتاج القائل ان **نشوء الماركسية عنى انقلابا ثوريا حقا فى تطور الفكر البشرى** .

ويدرس انجلس نشوء وتطور المذهب الفلسفى الماركسى فى مجرى تطور كل الفلسفة الالمانية بعد هيغل ، ويلاحظ ان الحياة الفلسفية فى المانيا قد فقدت لمعانها وعمقها منذ وفاة هيغل . فان اغلبية اتباع الفلسفة الهيغلية لم

تستطع ان تقترب من ذلك المستوى النظرى الذى كان ملازما لمؤلفات معلمهم البارزة . وحتى فورباخ الذى كان يقف اعلى من الجميع الى ما لا قياس له ، لم يستطع ، بحكم تذبذب مفاهيمه وتجردها ، ان يعارض المنهج الهيغلي وغناه الموسوعي الايجابي باي شيء . ولكن بذور التفكير الديالكتيكي النقدي الثوري التي بذرها هيغل كان لا بدّ لها من ان تعطي ، عاجلا ام آجلا ، نبتات قابلة للحياة . وهذه النبتات ظهرت . وقد كتب انجلس : «. . . مع انحلال المدرسة الهيغلية ، نشأ اتجاه آخر ايضا ، وهو الوحيد الذي اوتي أكله . وهذا الاتجاه مرتبط بصورة رئيسية باسم ماركس» * .

اثر فورباخ ، قطع ماركس وانصاره كل صلة بفلسفة هيغل المثالية وانتقلوا الى مواقع مادية . وقد وضعوا في رأس زاوية بحوثهم النظرية مبدأ دراسة العالم كما هو بالفعل ، دون البحث عن اية اسباب

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٤ .

غيبية ، مخفية عن الادراك المباشر . ولكن ، خلافا لفورباخ ، كما خلافا عن كل المادية السابقة ، لم يتوقف هذا الاتجاه الفلسفي عند التفسير المادي للطبيعة ، بل مضى قدما . وقد اوضح انجلس قائلا : «. . . ولم يتميز الاتجاه الجديد الا بانهم لاول مرة نظروا جديا الى المفهوم المادي عن العالم وطبقوه بانسجام — من حيث الخطوط الاساسية على الاقل — في جميع ميادين المعرفة التي نبحثها» * .

ان الفلسفة الماركسية الناشئة قد تميزت عن المذهب الفورباخي ، لا بتطبيق المبدأ المادي الانطلاقي بمزيد من الانسجام والثبات وحسب ، بل ايضا بموقف مختلف اختلافا جوهريا من تركة هيغل النظرية . ولئن كان فورباخ قد نبذ بكل بساطة فلسفة هيغل — ومنهجها وطريقتها — كشيء لا يصلح البتة للاستعمال ، فان مؤسسي الماركسية قد اخذا ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٥ .

«كنقطة انطلاق» ، كما يقول انجلس ، الجانب الثوري من هذه الفلسفة ، اي طريقتها الديالكتيكية . فبواسطة الديالكتيك وحده ، كان يمكن اكتشاف قوانين التطور التاريخي الفعلية ، كما كان يمكن على هذا الاساس تحديد السبل الاساسية لتحويل المجتمع القائم تحويلا جذريا . ان الديالكتيك انما هو شكل نظري مناسب للنضال الثوري العملي من اجل تجديد العالم ، «لانه يشمل في الوقت نفسه في الفهم الايجابي للموجود فهم انكاره ، وهلاكه الضروري ، وهو يعتبر كل شكل محقّق في حركة وينظر بالتالي اليه من جانبه العابر ، وهو لا يخضع لاي شيء وهو بحكم طبيعته انتقادي وثوري» * .

ولكن مؤسسي الماركسية ، كما يلاحظ انجلس ، ادركا جيدا انه لا يمكنهما استعمال الطريقة الديالكتيكية بالصورة التي صاغها بها هيغل ، ذلك ان الديالكتيك المثالي الهيغلي

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٢ ، الجزء ١ ، ص ١١١ .

ليس سوى تطور ذاتي للمفاهيم تشكل العمليات الديالكتيكية الجارية في الطبيعة والمجتمع خاتمه الشاحب . وحسب تعبير ماركس المجازي ، «عند هيغل يقف الديالكتيك على رأسه . فيجب ايقافه على قدميه لاجل تبيان الحبّة العقلانية تحت الغلاف الصوفي» * . وواجهت النظرية الفلسفية الجديدة مهمة تفهم الديالكتيك الهيغلي بطريقة جديدة ، مادية . وقد استطاع مؤسسا الماركسية اداء هذه المهمة . فقد شغلا موقفا ماديا منسجما وديالكتيكيا في آن واحد **واخضعا للتحليل العميق العالم الفعلي بالصورة التي يتواجد بها فعلا ، لا في موضوعيته المادية وحسب ، بل ايضا في الحركة والتغير ، في الصلة والتبعية المتبادلتين ، في التناقض الداخلي** . وبيّنا ان مختلف الافكار والمفاهيم البشرية ليست كائنات مستقلة ، بل انعكاس لاشياء وعمليات موجودة فعلا . وهما في مؤلفاتهما يعتبران ان الطبيعة والمجتمع في تغير

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٢ ، الجزء ١ ، ص ١١١ .

ماركس كان اعلى منا جميعا ، وكان يرى ابعد واوسع واسرع منا جميعا . ان ماركس كان عبقريا ، اما نحن ، فكنا ، على اكثر تقدير ، موهوبين . ولولاه لكانت نظريتنا بعيدة جدا عما هى عليه اليوم . ولهذا تحمل اسمه بجدارة» * .

وعليه ، كما يشير انجلس ، تقوم صلة وثيقة وعميقة بين النظرية الفلسفية الماركسية والفلسفة الكلاسيكية الالمانية . ولكنه لا يصح فهم هذه الاشارة بمعنى ان مذاهب المفكرين الالمان هى المصدر الفلسفى الوحيد للماركسية . فان ماركس وانجلس اللذين كانا يملكان جعبة فلسفية واسعة للغاية ومعارف اساسية فى ميدان تاريخ الفلسفة ، قد كدسا ، فى سياق صياغة نظريتهما ، المنجزات البارزة فى مختلف المدارس والاتجاهات الفلسفية . وقد انطلقا فى ذلك من ان نظريات الفلاسفة السابقين لم تعلل الافكار الفلسفية من المذهب الثورى وحسب ، بل عللت كذلك افكاره الاجتماعية السياسية

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٥ .

كما عللت المثل العليا الاشتراكية والشيوعية . فقد جاء فى اول مؤلف مشترك وضعه ماركس وانجلس وهو «العائلة المقدسة» : «لا حاجة الى حدة كبيرة من الذكاء لرؤية الصلة الضرورية بين مذهب المادية عن ميل الناس الفطرى الى الخير والمساواة بين كفاءاتهم الذهنية ، وعن كلية قدرة الخبرة والعادة والتربية وعن تأثير الظروف الخارجية فى الانسان ، وعن شأن الصناعة الرفيع ، وعن شرعية المتعة ، والخ . — وبين الشيوعية والاشتراكية» * .

ان تعاليم بيكون وسبينوزا المادية ، ومفاهيم ابيقور وغولباخ الالحادية ، وعلم الاخلاق عند هلفيسيوس ، ونظريات روسو وفوريه السوسيولوجية قد مارست تأثيرا كبيرا فى نشوء وتطور النظرات الفلسفية لمؤسسى الماركسية ، وحظيت فى مؤلفاتهما برفيع التقدير . ولكن مذهبى هيغل وفورباخ لعبا مع ذلك دورا كبيرا جدا فى بناء الفلسفة الماركسية . فعبر استيعاب العناصر العقلانية

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٢١ ، ص ٣٠١ .

6-947

في هذين المذهبين بروح نقادة ، وعبر تحسين صياغتها من جديد ، وعبر تذليل النواقص واحادية الجانب فيهما وعبر تحويل ما فيهما من تخمينات وفرضيات الى موضوعات نظرية متطورة ، راقية ، مضى ماركس وانجلس في طريق ابتداع منهج فلسفي جديد مبدئيا رفع التفكير الى مستوى اعلى نوعيا .

وفضلا عن المقدمات الفلسفية لظهور الفلسفة الماركسية ، يذكر انجلس المقدمات من العلوم الطبيعية . فان بناء المادية الديالكتيكية بوصفها مذهبا عن القوانين العامة لحركة العالم الطبيعي والاجتماعي والتفكير البشري الذي يعكسها كان يتطلب مستوى من تطور علم الطبيعة على درجة من العلو تكفي لكي تعطي المادة التي توصلت اليها العلوم الخاصة البرهان الاكيد على صحة الفكرة القائلة ان نفس القوانين الديالكتيكية الكلية ، التي كانوا ينسبونها من قبل للتفكير وحده ، تسود كذلك في الطبيعة . وهذا المستوى بلغه علم الطبيعة ، كما يلاحظ انجلس ، في القرن التاسع عشر ، عندما لم يبق «بصورة

رئيسية علم **التراكم** ، علم الاشياء المنتهية التكوين، واصبح . . . من حيث الاساس ، علم **التصنيف** ، علم التفاعلات ، علما يتناول اصل وتطور هذه الاشياء والصلة التي تجمع تفاعلات الطبيعة هذه في كل واحد كبير» * .

يبرز انجلس على الاخص ثلاثة اكتشافات كبرى ، قدمت البرهان المقنع على انعطاف ثوري في تطور علوم الطبيعة ، وقوضت من حيث الاساس مواقع الميتافيزياء والمثالية في تفكير علماء الطبيعيات . وهذه الاكتشافات هي بناء نظرية البنية الخلوية للكائنات العضوية ، واكتشاف قانون بقاء الطاقة وتحولها النوعي ، والنظرية العامة لتطور العالم النباتي والحيواني التي صاغها داروين واتباعه . «بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى ، وبفضل نجاحات العلوم الطبيعية الكبرى الاخرى ، نستطيع اليوم ان نبين الصلة القائمة بين تفاعلات الطبيعة في مختلف ميادينها ، وليس هذا فحسب ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٨ .

بل نستطيع ايضا ان نبين ، بوجه عام ، الصلة التى تجمع هذه الميادين المختلفة . وهكذا غدا من الممكن ، بواسطة المعلومات التى تقدمها العلوم الطبيعية التجريبية نفسهـــا ، ان تعرض بشكل منهجي الى حد ما لوحة عامة عن الطبيعة بوصفها وحدة متشابكة» * .

ان ظهور الفلسفة المادية الديالكتيكية ، مثلها مثل المذهب الماركسي بمجمله ، لم يشترطه نشوء مختلف المقدمات النظرية وحسب ، بل اشترطه كذلك كل مجرى التطور التاريخي . فقد ظهرت الماركسية كانعكاس ضروري موضوعيا للتغيرات العميقة التى طرأت نحو الاربعينيات من القرن التاسع عشر في الاقتصاد والبنيـــة الاجتماعية والنضال الطبقي في المجتمع الاوروبي الغربي . ونحو ذلك الزمن ، لم يكن اسلوب الانتاج الرأسمالي قد توطد نهائيا وحسب ، بل كان كشف كذلك تناقضاته الداخلية التى تبدت ، على الاخص ، في الازمات الاقتصادية

---

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٩ .

الدورية التى بدأت بعد سنة ١٨٢٥ . ثم ان البرجوازية — سواء البرجوازية التى وصلت الى الحكم كما في انجلترا او في فرنسا ، ام البرجوازية التى كانت لا تزال خاضعة سياسيا للاريستقراطية الاقطاعية كما في المانيا — كانت قد فقدت طاقتها الثورية واخذت تعارض تحويل المجتمع لاحقا بصورة جذرية . واخذت العلاقات بين طبقات المجتمع الرأسمالي تتركز اكثر فاكثر حول التناقض الرئيسي والجذري بين طبقتيـــه الاساسيتين — البروليتاريا والبرجوازية . وطفقـــت البروليتاريا التى تعاني الاضطهاد والعذاب في بلدان اوروبا والتى كان ذوو الحول والطول يعتبرونها قرحة محتمة لا مناص منها ولا شفاء لها في جسد الحضارة البشرية ، تتحول بنحو غير متوقع اطلاقا بالنسبة لهم الى قوة مناضلة رهيبة . وجميع هذه الظاهرات الجديدة تطلبت دراستها دراسة عميقة . ولم يكن ذلك ممكنا الا في اطار ادراك كل التجربة التاريخية وتحديد ميول التطور الاجتماعي . وكان الجواب عن هذه المسائل الناضجة ظهور الماركسية التى استطاعت

ان تكشف قوانين التاريخ البشرى الاساسيـة وتبين آفاق التقدم الاجتماعى ، وذلك من مواقع الطبقة الاكثر تقدما والاكثر ثورية ، الطبقة التى تطابقت مصالحها بصورة موضوعية مع متطلبات التطور التاريخى .

وقد ادى اكتشاف القوانين الاجتماعية وبحثها الى بناء **نظرية المادية التاريخية** ، او كما سماها ماركس وانجلس ، **الفهم المادى للتاريخ** . فقد نجمت هذه النظرية عن سحب المبدأ المادى الانطلاقى القائم فى اساس كل منهج الماركسية الفلسفى الى ميدان الظاهـــرات الاجتماعية . وفيما يتعلق بالمجتمع ، عرض الحل الماركسى للمسألة الاساسية فى الفلسفة ، كما بين مؤسسا الماركسية ، الاعتراف **بالمعيشة الاجتماعية** عنصرا محددا ، **وبالوعى الاجتماعى** عنصرا تابعا . ولاحظ ماركس وانجلس : «... ان الوعى ... لا يمكنه ابدا ان يكون شيئا آخر غير الوجود المدرك ... والحال ان وجود الناس هو العملية الفعلية لحياتهم ... ليس الوعى هو الذى يحدد الحياة بل الحياة

هى التى تحدد الوعى» * . وهذا الموقف بالذات هو الذى اتاح لهما ان يكونا فى تاريخ الفكر البشرى اول مفكرين يبنيان علم المجتمع على اساس مادى راسخ .

اصبح ماركس وانجلس الماديين الاولين فى ميدان ادراك التاريخ . فجميع الفلاسفة قبلهما ، بصرف النظر عن آرائهم فى الطبيعة ، ظلوا فى ميدان التاريخ مثاليين . وكان ذلك مشروعا تماما بالنسبة لاولئك المفكرين الذين اعترفوا بأسبقية (باولية) الفكر ، الوعى ، بالنسبة للمادة . وفى ميدان الحياة الاجتماعية ، كما فى ميدان الطبيعة ، اناط هؤلاء المفكرون الدور الحاسم بالعناية الربانية او بالعقل العالمى او بالفكرة المطلقة . ومن هذه المواقع اعتبروا مجرى التاريخ عملية مقررة سلفا فى سماتها ومراحلها الاساسية ، وبشكل تجسيد مبدئها الاول الروحى تدريجيا مضمونها . وقد كتب انجلس : «ومن وجهة النظر هذه ، نجم ان التاريخ عمل بشكل

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٢١ .

لاواع ولكن بالضرورة ، من اجل تحقيق هدف معروف مثالي : معين مسبقا ؛ فعند هيغل ، مثلا ، كان هذا الهدف تحقيق فكرته المطلقة ، كما ان السعي الدائم نحو هذه الفكرة المطلقة كون ، حسب رأيه ، العلاقة الداخلية فـــي الاحداث التاريخية» * .

كان الحال اشد تعقدا بكثير بالنسبة للفلاسفة الذين حلوا ماديا المسألة الاساسية في الفلسفة . فلاجل توضيح الظاهرات والعمليات الاجتماعية ، لم يكن بوسعهم ان يلجؤوا الى مساعدة قوى غيبية ، خيالية ، لان من شأن هذا ان يناقض مواقعهم المادية المنطقية . ولهذا وجهت الاغلبية الساحقة منهم ، مثل فورباخ ، انظارها الى الانسان لاعتبارها اياه «خلية» المجتمع «الاولى» . ولكن هؤلاء المفكرين لم يروا اساس الحياة الاجتماعية المادي الفعلي الذي يحدد منطق سلوك الافراد والفئات الاجتماعية والطبقـــات فخلصوا ، اساسا ، في سياق البحث عن

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

عوامل محددة اخرى ، الى المثالية . وقد حاولوا ان يجدوا اسباب الاحداث التاريخية في نشاط الناس الواعي وفي آخر المطاف ، — في وعيهم ، في الافكار التي يسترشد بها الناس . وبذلك خانت المادية السابقة لماركس نفسها في ميدان التاريخ «اذ انها اعتبرت القوى الحافزة المثلى العاملة فيه الاسباب الاخيرة للاحداث» * .

ويلفت انجلس الانتباه الى هذا الواقع ويبين سببه الاساسي . هذا السبب يتلخص ، من وجهة نظره ، في الفرق المبدئي بين تاريخ المجتمع وتاريخ الطبيعة . اجل ، ان التطور هنا وهناك يخضع اجمالا لقوانين ديالكتيكية كلية ذات طابع موضوعي . ولكن في الطبيعة «لا يؤثر بعضها في بعض غير قوى عميـــاء لاواعية ، وفي تأثيرها المتبادل تظهر القوانين العامة» ** . وما من عملية طبيعية تتحقق وفقا لهدف موضوع سلفا ، وطبعا ، باستثناء تلك

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢١ .

** المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

الحالات التي يستثيرها فيها الانسان : او حين تجرى بمراقبته المباشرة لاجل تحقيق خططه . ولهذا من الاسهل نسبيا ان نكتشف في الطبيعة وراء فوضى الصدف الظاهرية فعل قوانيـــن موضوعية عامة .

الا ان وضع الامور يختلف اختلافا مبدئيا في تاريخ المجتمع حيث «يفعل الناس الذين لهم موهبة الوعي ، ويعملون بتفكير او بتأثير عاطفة وينشدون اهدافا معينة . ولا يصنع هنا شيء دون نية واعية ، ودون هدف منشود» * . فان هذا العامل بالذات يقرر صعوبة معرفة كنه الاحداث الاجتماعية وتلك القوانين الموضوعية التي ترتكز عليها افكار الناس ومطامحهم ومساعيهم وتصرفاتهم . وقد كانت المادية السابقة ، كما يلاحظ انجلس ، تشكو من نقص جوهري ، قوامه انها لم تطرح البتة مسألة الاسس العميقة لتلك القوى الحافزة المثالية التي كانت تحدد النشاط البشري . وخلافا لها ، دعا كثيرون من

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٠ .

المثاليين ، وفي المقام الاول ، ممثلو المثالية الديالكتيكية وعلى رأسهم هيغل ، الى بحث ودراسة الاسباب الخفية عن الادراك المباشر للاحداث التاريخية . ولكنهم لم يجدوا هذه الاسباب في التاريخ بالذات ، بل وجدوها في مفهومهم الفلسفي المثالي ، الامر الذي لم يساعدهم كذلك على التقدم في الطريق الى تفهم قوانين التطور الاجتماعي الفعلية .

كيف تحل اذن الفلسفة الماركسية والفهم المادي للتاريخ ، مسألة جوهر الاسباب الاولية للنشاط البشري ؟

اولا . ان هذه النظرية ترفض البحث عنها في افكار الناس وتطلعاتهم ، حتى ولو كان هؤلاء من الشخصيات التاريخية البارزة . وهي في ذلك تنطلق من الواقع التجريبي الذي يتأكد يوميا ، وهو ان الحياة الاجتماعية نتيجة مصادمة وتفاعل وتضاد وصراع بين عدد لا يحصى من المطامح الفردية ، ومن جراء هذا نرى ان الاكثرية الساحقة من الاهداف الموضوعة عن وعي ، اما لا تتحقق البتة ، واما تؤول الى

عواقب غير متوقعة اطلاقا . وهذا يعني انه يجب الا تؤخذ بالحسبان «حوافز الافراد وان اشدهم بروزا ، بقدر الحوافز التي تحرك جماهير كبيرة من الناس ، شعوبا بأسرها ، وفي كل شعب ، بدوره ، طبقات بأسرها» * . ان البحث عن الاسباب الفعلية التي تحرك اعمال الجماهير الشعبية والتي يمكن ان تنعكس في رؤوس المشتركين المباشرين بشكل خيالي ، غريب ، مشوه ، انما هو ، برأي انجلس ، السبيل الوحيد الى معرفة القوانين الاجتماعية .

ولكن اداء هذه المهمة لم يصبح ممكنا الا حين بلغ التاريخ مرحلة تبدت فيها بكل جلاء الصلة بين اسباب التطور الاجتماعي الفعلية وعواقبها . وقد حدث هذا في الثلث الاول من القرن التاسع عشر حين تركز الصراع السياسي والفكري كله ، بفضل تطور اسلوب الانتاج الرأسمالي في انجلترا وفرنسا في المقام الاول ، حول سعي طبقتين الى السيادة ،

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٢ .

هما طبقة الاريستقراطية العقارية وطبقة البرجوازية اللتان سرعان ما انضمت اليهما البروليتاريا التي برزت في اوائل الثلاثينات كقوة سياسية مستقلة . وقد كتب انجلس : «وقد بلغت العلاقات درجة من البساطة بحيث ان الناس الذين اغمضوا عيونهم عمدا هم وحدهم الذين لم يستطيعوا ان يروا ان في صراع هذه الطبقات الثلاث الكبرى وفي تصادم مصالحها تكمن القوة المحركة لكل التاريخ الحديث ، على الاقل في هذين البلدين الاكثر تطورا» * .

ولكن الاعتراف بهذا الواقع تبعه حتما الاعتراف بان الصراع بين هذه الطبقات ، وفي المقام الاول بين البروليتاريا والبرجوازية ، لا يدور بدافع مبادئ روحية ، بل بدافع مصالح مادية ، اقتصادية . وفضلا عن ذلك ، كانت الوقائع التاريخية تدل على ان ظهور هذه الطبقات قد استدعته قبل كل شيء التغيرات في اسلوب انتاج الخيرات المادية . وهكذا جاء تحليل

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٣ .

المادة ، التي تعود على الأقل الى التاريخ الحديث ، يقدم البرهان المقنع على ضرورة البحث عن الاسباب الجذرية للعمليات الاجتماعية في ميدان الانتاج المادي ، في ميدان العلاقات الاقتصادية .

لقد انطلق ماركس وانجلس في صياغة المفهوم المادي الديالكتيكي عن التاريخ من ذلك الواقع البسيط والطبيعي ، هو انه يتوجب على الناس ، قبل ان ينصرفوا الى العلم والسياسة والفلسفة والدين وما الى ذلك ، ان يأكلوا ، ويشربوا ويلبسوا ، وان يكون لهم مسكن ، والخ . ، اي انه يتوجب عليهم لاجل الحفاظ على حياتهم ان يملكوا احتياطيا معينا من الخيرات المادية . ولكن ليس جميع الاشياء الضرورية لهم يمكن ايجادها في كل لحظة ، جاهزة في العالم المحيط بهم ، فينتجونها في هذه الحال . وفي قدرة الناس على صنع المنتوجات الضرورية لهم ، في هذه القدرة بالذات ، رأى مؤسسا الماركسية ، اهم صفاتهم. فقد كتبا : «يمكن تمييز الناس عن الحيوانات

من حيث الوعي ، من حيث الدين — وعلى العموم باي شيء كان . وهم انفسهم يبدأون يميزون انفسهم عن الحيوانات ما ان يبدأوا **ينتجون** وسائل العيش الضرورية لهم — وهذه خطوة يشترطها تنظيمهم البدني»* .

وبديهي ان بعض المفكرين قد لفتوا الانتباه من قبل ايضا الى الدور الهام الذي يضطلع به الانتاج المادي في حياة الناس . بيد انهم اعتبروا الانتاج ضرورة حيوية ولكن خارج التاريخ . ولم يروا واقع ان **اسلوب الانتاج يحدد مجرى التطور التاريخي ويتغير مع ممر التاريخ** . وقد استطاع مؤسسا الماركسية ، خلافا لاسلافهما ، ان يبينا الدور الحاسم **لاسلوب الانتاج** وابرزا **علاقات الانتاج** بوصفها **البناء التحتي الاقتصادي للمجتمع والحلقة المركزية لجميع العلاقات الاجتماعية** .

ان تعريف العلاقات الاقتصادية المادية بانها اساس كل نظام العلاقات الاجتماعية كله

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ١٥ .

قد اتاح النظر الى تطور المجتمع كما الى عملية موضوعية مراحلها الاساسية مشتركة بين مختلف الشعوب .

وبفضل ذلك ، تبين ان من الممكن فرز المشترك في النظام الاجتماعي في مختلف البلدان وتعميم اوضاعها في مفهوم اساسي واحد هو التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية . وقد كتب لينين يقول : «وهذا التعميم وحده هو الذي اتاح الانتقال من وصف الظواهر الاجتماعية (ومن تقديرها من وجهة نظر المثال الاعلى) الى تحليلها تحليلا علميا دقيقا يفرز ، مثلا ، ما يميز بلدا رأسماليا عن آخر ويدرس ما هو مشترك بين جميع البلدان الرأسمالية» * . ثم ان تعاقب مختلف العهود في تاريخ البشرية برز بدوره كعملية مشروعة ومشروطة موضوعيا هي عملية تعاقب اساليب الانتاج التي تتقدم من عهد الى عهد . وفي اساس التطور التدريجي المتواصل

---

* لينين . مختارات في ١٠ مجلدات . المجلد ١ ، ص ٤٧ .

لاساليب الانتاج ، يكمن التناقض الناشئ على الدوام بين مستوى القوى المنتجة التي تقوم بدور المضمون الداخلي لعملية التطور ، وبين علاقات انتاج معينة . وكل عهد تاريخي ، كما بيّن ماركس وانجلس ، يتصف بمقدمات موضوعية لتطوره اي بوجود عدد معين من الافراد ووجود قوى منتجة معينة وعلاقات انتاج معينة . والناس ليسوا احرارا في اختيار هذه المقدمات ؛ فان كل مجرى التطور السابق للمجتمع يعطيها بوصفها شروطا فعلية لنشاطهم الحيوي ، وبصفتها هذه تملي اشكالا مناسبة للنشاط .

وقد اكد ماركس وانجلس على الطابع المشروع والموضوعي للتطور التاريخي ، ولكنهما اشارا في الوقت نفسه الى الدور الفعال لنشاط الناس الذين ليسوا نتاجا للظروف وحسب ، بل يخلقون كذلك هذه الظروف . وكل جيل جديد من الناس يغير بنشاطه الظروف الموضوعية لحياة المجتمع وبذلك «. . . يتشكل تاريخ البشرية الذي يصبح اكثر فاكثر تاريخ البشرية بقدر ما تتنامى قوى الناس المنتجة ، وبالتالي علاقاتهم

الاجتماعية» .

بفضل الطريقة المادية الديالكتيكية ، برز التطور الاجتماعى فى مؤلفات مؤسسى الماركسية ، بمثابة عملية تاريخية طبيعية ، بمثابة تعاقب مشروع لعضويات اجتماعية الواحدة تلو الاخرى .

ومحل مفهوم «المجتمع على العموم» ، حل مفهوم ملموس هو مفهوم **التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية الذى يعبر عن الصلة العضوية المتبادلة بين جميع جوانب الحياة الاجتماعية فى ظل الدور الحاسم للانتاج المادى** . وقد كتب ماركس : «تقوم بين الناس ، اثناء الانتاج الاجتماعى لحياتهم : علاقات معينة ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم ، هى علاقات الانتاج التى تطابق درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع ، اى الاساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء فوقى حقوقى وسياسى وتطابقه اشكال معينة من الوعى الاجتماعى .

* ماركس ، انجلس . رسائل مختارة . دار التقدم . موسكو . سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٢ .

ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعى والسياسى والفكرى ، بصورة عامة . فليس ادراك الناس هو الذى يعين معيشتهم ، بل على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين ادراكهم» * .

وكشف ماركس وانجلس الالية الملموسة لتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ، وابانا ان قوى المجتمع المنتجة تتجاوز عاجلا او آجلا ، فى سياق تطورها ، علاقات الانتاج القائمة . وهذا التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يجد حلا له بحيث تحل محل علاقات الانتاج السابقة التى امست قيودا فى وجه القوى المنتجة المتنامية ، علاقات انتاج جديدة تفسح المجال امام تقدم القوى المنتجة . وهذا التناقض ينعكس فى نضال الطبقات المتعادية فى المجتمع التناحرى ؛ وهذا النضال يؤدى الى الثورة الاجتماعية . واذا كان اسلوب الانتاج هو العامل المحدد

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ٢ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

لتطور التاريخى ، فان النضال الطبقى هو القوة
المحركة لهذا التطور فى التشكيلات الاجتماعية
التاحرية . وقد كتب انجلس عن المادية التاريخية
انها تعنى «مفهوما عن مجرى التاريخ العالمى
يرى السبب الاول والقوة المحركة الحاسمة
لجميع الاحداث التاريخية الهامة فى تطور
المجتمع الاقتصادى ، فى تغيرات اسلوب
الانتاج والتبادل ، فى انقسام المجتمع الى
طبقات مختلفة من جراء ذلك ، فى الصراع
بين هذه الطبقات» * .

ومع عرض هذه الموضوعات الاساسية فى
الفهم المادى للتاريخ ، بين انجلس فى
الفصل الاخير من مؤلفه «لودفيغ فورباخ ونهاية
الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» بثبات وانسجام
تبعية مختلف جوانب حياة المجتمع حيال اسلوب
انتاج الخيرات المادية . وعلى سبيل المثال
الاول ، اخذ **العلاقات المتبادلة بين البناء
التحتى الاقتصادى والدولة** التى تبرز من النظرة

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ١ ، ص ١١٦ — ١١٧ .

الاولى الى تاريخ البشرية بمثابة قوة جبارة ،
مستقلة تماما عن سائر المؤسسات الاجتماعية .
وفضلا عن ذلك كانت الدولة تظهر فى مؤلفات
المفكرين ما قبل ماركس مجالا للحياة الاجتماعية
يحدد جميع مجالاتها الاخرى ، بما فى ذلك
«المجتمع المدنى» ، كما كانوا يسمون فى اواخر
القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ميدان
العلاقات الاقتصادية . ولقد كان ماركس
وانجلس اول مؤلفين يكشفان تبعية الدولة حيال
مصالح تلك الطبقة التى هى الطبقة السائدة
فى ميدان الانتاج . ان دراسة المادة التاريخية
دراسة جدية وغير متحيزة ، كما يقول انجلس ،
تؤدى الى القول «ان ارادة الدولة ... تحددها
اجمالا وكليا الحاجات المتغيرة للمجتمع المدنى ،
وسيطرة هذه الطبقة او تلك ، وفى آخر الامر ،
تطور القوى المنتجة وعلاقات التبادل» * .

وبمثال الدين ايضا ، اى بذلك الشكل
للوعى الاجتماعى الذى هو الابعد ، على ما

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٥ .

بيلدو ، عن ميدان الانتاج المادى ، يبرهن انجلس توقف جميع جوانب حياة المجتمع بصورة مبدئية على العلاقات الاقتصادية ومصالح الطبقات المتضادة . وقد توسع فى صياغة الموضوعة التى سبق ان عرضها فى مؤلفه «ضد دوهرينغ» والتى تقول ان «الدين ، كل دين ، ليس سوى انعكاس خيالى فى رؤوس الناس لتلك القوى الخارجية التى تسود عليهم فى حياتهم اليومية ، انعكاس تتخذ فيه القوى الارضية شكل القوى غير الارضية» * .

وبايراد امثلة من تاريخ المسيحية ، بيّن انجلس ان التصورات الدينية ، بالرغم من تطورها بموجب قوانينها الخاصة ، واتجاه هذا التطور ومضمونه ان كل هذا يرتبط مع ذلك اوثق ارتباط بالتغيرات فى حياة المجتمع الاجتماعية والاقتصادية . فان استتباب المسيحية بوصفها دينا عالميا ، مثلا ، قد اشترطه فى آخر الامر ، نشوء الامبراطورية العالمية الرومانية التى

* ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٢٠ ، ص ٣٢٨ .

لم يكن عليها ان توحد الشعوب المقهورة سياسيا وحسب ، بل ان توحدها ايديولوجيا ايضا . ثم ان ظهور البروتستانتية تجاوب بدوره مع مصالح الطبقة الناشئة ، طبقة البرجوازية ، التى رافق نضالها ضد الاوضاع الاقطاعية فى ميدان الاقتصاد والسياسة النضال ضد الكاثوليكية بوصفها الايديولوجية الدينية الرسمية .

ان هذه وغيرها من الامثلة تتيح لانجلس ان يستخلص «ان الدين ، ما ان ينشأ ، حتى يحتفظ دائما باحتياط معين من التخيلات الموروثة عن الازمنة السابقة لان التقليد فى جميع الميادين الايديولوجية بوجه عام هو قوة محافظة كبرى . ولكن التغيرات التى تحدث فى احتياط التخيلات هذا تحددها العلاقات الطبقية ، اى العلاقات الاقتصادية بين الناس الذين يقومون بهذه التغيرات» * .

وفى الوقت نفسه يؤكد انجلس ان الوعى الاجتماعى والمؤسسات السياسية على السواء

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

تمارس تأثيرا معاكسا فعالا في المعيشة الاجتماعية ، وفي تطور الانتاج المادي . ان بوسع الافكار والنظريات والنظرات الاجتماعية ، وتطبيقها في ميدان النشاط السياسي ممارسة تأثير جوهري في مجرى التطور التاريخي . وهذه المسألة ستسترعي انتباه انجلس حتى بعد صدور مؤلفه «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . ففي احدى رسائله من المرحلة اللاحقة ، عرض انجلس ، على ضوء مثال العلاقات المتبادلة بين البناء التحتي الاقتصادي والدولة ، الصيغ المحتملة لتأثير الدولة المعاكس في الاقتصاد . «ان تأثير السلطة السياسية المقابل في التطور الاقتصادي يمكن ان يكون ثلاثي الوجوه . فقد تفعل في نفس اتجاه التطور فيسير التطور بمزيد من السرعة ؛ او قد تفعل ضد اتجاه التطور الاقتصادي ، فتمنى بالاخفاق في الوقت الحاضر عند شعب كبير بعد مرور حقبة معينة من الزمن ؛ او قد تقيم عقبات امام التطور الاقتصادي في اتجاهات معينة وتدفعه في اتجاهات اخرى . وهذه الحالة تؤول في آخر المطاف الى احدى الحالتين السابقتين ، ولكنه واضح انه من الممكن ان تتسبب السلطة السياسية في الحالتين الثانية والثالثة للتطور الاقتصادي بافدح الضرر وبتبذير القوى والمواد بمقادير كبيرة جدا» * .

ان حل هذه المسألة على هذا النحو برهن بجلاء طابع النظرية التاريخية الماركسية المادي والديالكتيكي سواء بسواء ؛ فان هذه النظرية تتناول المجتمع بوصفه عضوية متكاملة تتواجد اجزاؤها المكونة في وحدة عضوية وصلة متبادلة لا انفصام لعراها . وبفضل الدقة العلمية وسعة الطريقة المتبعة لدراسة الظاهرات والعمليات الاجتماعية ، لا تزال فلسفة المادية التاريخية اليوم ايضا اساسا منهاجيا موثوقا لاجل البحوث التاريخية الملموسة .

* ماركس ، انجلس . رسائل مختارة . دار التقدم . موسكو ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٠٧ .

لقد اثبت انجلس بصورة مقنعة في مؤلفه «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» ان نشوء الماركسية بمجملها ، ونشوء الفلسفة الماركسية بوصفها جزءا مكونا من اجزائها ، قد اشترطته الضرورة العلمية النظرية ، والضرورة الاجتماعية الاقتصادية ، والضرورة السياسية المباشرة . وقد تطابق بصورة شرعية محتمة من حيث الزمن مع ظهور البروليتاريا في مسرح التاريخ بوصفها قوة سياسية مستقلة . وبتحليل الواقع الاجتماعي تحليلا عميقا وشاملا ، وعلى اساس استيعاب كل ايجابي انشئ قبلهما في ميادين الفلسفة والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، وعلى اساس اعادة صياغته بعين نقادة ، بنى ماركس وانجلس عقيدة جديدة نوعيا هي عقيدة الطبقة العاملة ، التي صارت الاساس الفلسفي لنظرية الشيوعية العلمية وممارسة

الحركة العمالية الثورية .

وقدم مؤسسا الماركسية البرهان المقنع على ان الفلسفة كانت دائما احدى الادوات الاساسية في الصراع الفكري بين مختلف الفئات الاجتماعية ، ومسرحا للمصادمات النظرية بين الاحزاب السياسية . ان الفلسفة ، من حيث جوهرها بالذات ، بوصفها نواة العقيدة ، تتسم بطابع طبقي ، وبالتالي بطابع حزبي . وكما تكون طبيعة هذه الطبقة او تلك ، وكما يكون وضعها في نظام العلاقات الاجتماعية وكما تكون بالتالي رسالتها التاريخية النابعة من هنا ، كذلك تكون عقيدتها الفلسفية .

لقد برز ماركس وانجلس ، منذ بادئ بدء نشاطهما الثوري ، كايديولوجيي الطبقة العاملة . فقد كانا على اقتناع عميق بان الغاية الحقيقية من الفلسفة لا تقوم في بحث المسائل المجردة ، البعيدة عن الحياة الفعلية ، بل تقوم في تحليل قضايا التطور الاجتماعي الحيوية . يجب على الفلسفة ان تستدير بوجهها نحو الممارسة الاجتماعية وتعلل مهماتها الاساسية وسبل

تحقيقها . «ان الفلاسفة لم يفعلوا غير ان فسروا العالم باشكال مختلفة ، ولكن المهمة تتقوم في **تغييره**» . هكذا حدد ماركس الاتجاه الرئيسي في صياغة النظرية الفلسفية الجديدة .

ان الاهمية الاجتماعية والسياسية التي تتسم بها الفلسفة الماركسية تنجم من كونها تشكل الاساس النظري لعقيدة البروليتاريا ، وتبرهن بالسبيل العلمي حتمية هلاك الرأسمالية وانتصار الاشتراكية والشيوعية . ان الاشتراكية التي تحولت من طوباوية الى علم قد دلت البروليتاريا وحزبها على السبيل الصحيح الوحيد للنضال الثوري من اجل بناء المجتمع الجديد . وكان ينبغي ان يصبح تحويل المعيشة الاجتماعية والميدان الاجتماعي والاقتصادي من حياة المجتمع تحويلا جذريا ، كما كان ينبع من الفهم المادي للتاريخ ، المضمون الاساسي للنضال الثوري . بل ان فكرة الثورة الاجتماعية التي تقوم بها البروليتاريا ترتبط ارتباطا لا انفصام لعراه

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٩ .

بالموقف المادي الديالكتيكي من العملية التاريخية ؛ فان الديالكتيك ، كما ثبت انجلس بجلاء في مؤلفه الذي درسناه ، ينبذ كل متحجر ومحافظ وبال ؛ ويعترف بالحركة المتواصلة الى الامام ، بالنضال المتصاعد من اجل تجديد العالم تجديدا ثوريا ، ويؤكدهما .

وفي معرض بناء النظرية الفلسفية الجديدة ، كان ماركس وانجلس واثقين على الدوام بان فئات واسعة من العمال ستفهمها وبانها ستتخذها سلاحا روحيا ماضيا في كفاحها الثوري . وثقتهما هذه تبررت كليا . فان الحركة العمالية التي اشتد ساعدها وترسخت اقدامها في غمار المعارك الطبقية الطاحنة ، قد صارت بالنسبة للفلسفة الجديدة ذلك «السلاح المادي» الذي كتب عنه ماركس في اواسط الاربعينيات من القرن التاسع عشر» .

ففي سبيل ثوري واحد اندمجت النظرية الماركسية التي تناضل بشجاعة ضد المجتمع البرجوازي

* راجع : ماركس ، انجلس . بصدد الثورة الاشتراكية . دار التقدم ، موسكو ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٣١ .

وتفضح عيوبه وتناقضاته ، ونضال الطبقة العاملة الشجاع ضد سيادة البرجوازية . ولقد اشار انجلس الى مشروعية هذا الواقع فى خاتمة مؤلفه : «. . . فبقدر ما يتقدم العلم ببسالة واقدام ، بقدر ما يجد نفسه متفقا مع مصالح واهداف العمال . ان الاتجاه الجديد (والمقصود هنا الفلسفة الماركسية — **المؤلف**) الذى وجد فى تاريخ تطور العمل المفتاح لفهم كل تاريخ المجتمع ، قد خاطب منذ البدء الطبقة العاملة بالدرجة الاولى ، ووجد من جانبها ذاك العطف الذى لم يبحث عنه ولم ينتظره عند العلم الرسمى» . ومرة اخرى أكد انجلس فى الخاتمة على الصلة الوثيقة بين الماركسية وبين ممثلى الفكر الفلسفى الالمانى البارزين ، وختم عمله بالكلمات التالية : «ان الحركة العمالية الالمانية هى وريثة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» * .

---

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٣٢ .

محتويات